المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

هريت بيتشر ستاو

كوخ العم توم

دار العلم للملايين

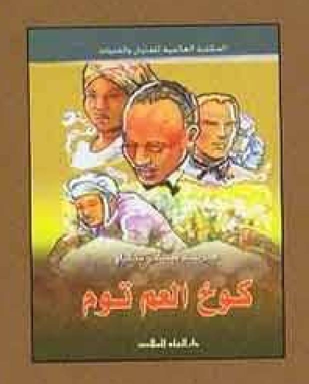


كوخ العم توم

دار العلم للملايين

3

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات



هذه الرواية

- ❖ أشهر قصّة في الأدب الأميركيّ كله.
- ❖ صوّرت فيها كاتبتُها حياة الزنوج الأميركيّين قبل الحرب الأهليّة، وطالبَت بحقّهم في الحياة كبشرٍ ومواطنين.
- ❖ تُرجِمَت إلى مختلف لغات العالم، وطُبِعَت بالعربية بنصّها الكامل عدّة مرّات.
- ❖ لا يَزال الناس في عصرنا هذا بحاجة إلى قراءة هذه الرواية، لأنَّ مأساة «العم توم» لمّا تنتهِ.. إنّها قائمة إلى اليوم في صُوَرٍ من التمييز العنصريّ واضطهاد البيض العِرقَ الأسود في بقاع كثيرة من الأرض.

www.malayin.com



06553

9 789953 634746 6



المَكتبَة العَالميَّة
للفِتيَان والفتيَات

كوخ العم توم

تأليف: هرييت بيتشر ستاو
تعريب وتلخيص: أكرم الرافعي

طبعة جديدة مَزيدة ومنقّحة
ومُرفقة بمجموعة من الأسئلة المنهجيَّة والمفيدة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

شارع مار الياس ـ بناية متكو ـ الطابق الثاني
هاتف 306666 1 (961) + ـ فاكس: 701657 1 (961) +
ص.ب.: 1085-11 بيروت 2045 8402 ـ لبنان

Internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

طبع في لبنان

Mar Elias street, Mazraa
P.O.Box: 11-1085
Beirut 2045 8402 LEBANON
Original Title: Uncle Tom's Cabin

٠٩ ١٠ ١١ ١٢ ٨ ٧ ٦ ٥

1 ـ رجل إنسانيّ

كان ذلك في ذاتِ مساءٍ من شهر شُباط. وكانتِ الليلةُ باردةً جدًّا. وفي حجرة طعام مُريحة بمدينة «ب.» بولاية كَنْتاكي في الولايات المتّحدة الأميركيّة، كان يجلس رجلان أمامهما زُجاجةٌ من الخمرة، وقد بدا على وجهَيْهما الاهتمامُ، ممّا يدلُّ على أنّهما يبحثان أمرًا ذا بال.

كان أحدُ هذين الرجلين قصيرًا بدينًا، تَنمُّ تقاطيعُهُ الفجّةُ المُبْتَذَلَةُ وما ينطِقُ به مُحَيّاهُ من الغُرور والوقاحة، على أنّه وضيعُ الأصل، دنيءُ المقاصد، لا يتورّعُ عن أيِّ شيء في سبيل تحقيق أغراضِهِ، حتّى ولو أدّى ذلك إلى هلاكِ الآخرين. أمّا رفيقُهُ، السيّد شِلْبي، فقد كان مظهرُهُ عكسَ ذلك تمامًا، إذ كان يَدُلُّ على أنّه رجلٌ مهذّب. وكان الاجتماعُ معقودًا في منزله، الذي

يدلُّ أثاثُهُ ونظامُهُ على أنَّ أهله يعيشون في بحبوحةٍ، بل في تَرَف، قال السيّد شلبي:

ـ «على هذا النحو أريد أن أسوِّيَ هذه القضيّة!»

فردَّ الآخرُ وهو يرفعُ كأسه حاجبًا بها النورَ عن وجهه:

ـ «إنَّ هذا الحلَّ لا يوافقني، يا سيّد شلبي، ولا أستطيع أن أقبل به!»

ـ «ولكنَّ توم، يا هالي، خادمٌ نادرُ المِثال، فهو يساوي مبلغًا كهذا في أيِّ بقعةٍ من الأرض تَعْرِضُهُ فيها.. إنَّه رجلٌ مخلصٌ، صادقٌ، مجرَّب، وهو يدير مزرعتي بدقّةِ الساعة.»

فردَّ الآخر، وهو يَصُبُّ لنفسه كأسًا جديدةً من الخمر:

ـ «مخلص! تريدُ أن تقولَ على قَدْرِ ما يكون الزِّنجيُّ مخلصًا!»

ـ «كلّا! بل إنّني أريد أن أقولَ إنّه بالفعل مخلصٌ، صادقٌ، حسّاسٌ، وَرِعٌ. لقد أمَّنْتُهُ على كلِّ ما أملك: المال، والدار، والخيول.. وفي كلِّ مرة وجدْتُهُ دقيقًا مخلصًا، إلى أبعدِ حدٍّ من

الدقّةِ والإخلاص. مثال ذلك أنّني أرسلتُهُ، منذ فترةٍ من الزمن، إلى سانسيناتي ليصرِّفَ لي بعضَ الأعمال، ويحمِلَ إليَّ خَمْسَمِئَةِ دولار، وقلت له: «إنَّني أثقُ بك، يا توم، وأنا متأكِّدٌ من أنَّك لن تَسْرِقَني.» وعاد توم، كما كنتُ متوقِّعًا، رغمَ أنَّ بعض الأشقياء قد أَوْحَوْا إليه بأن يَفِرَّ بالمال إلى كندا. هَيّا، خُذْهُ مقابلَ رصيد دَيْنك!»

وزفَرَ التاجرُ بتصنُّع، ثمَّ صبَّ لنفسه كميَّةً أخرى من الخمر. وران عليهما، لحظةً من الزمن، صَمْتٌ مُمِضٌّ قطعَهُ السيّد شلبي قائلاً: «ماذا تقول يا هالي؟ ما هي كلمتُكَ الأخيرة؟»

ـ «أليس لديك شيءٌ تضيفُهُ إلى توم؟... بنت، أو غلام؟..»

ـ «إنّني لا أستطيعُ الاستغناءَ عن أحد! وإذا كنتُ أبيع، فأنا لا أبيع إلا مُضْطَرًّا، لأنّني لا أُحبُّ أن أُبْعِدَ عنّي العاملين عندي.»

وفي تلك اللحظة انفتح البابُ، ودخل عليهما طفلٌ خُلاسيٌّ(1) ما بين الرابعةِ والخامسةِ من عُمُرِه. كان الطفل ذا

(1) ـ الخلاسي: هو الذي يكون من أبوين أحدهما أبيض والثاني أسود.

عينَيْن سوداوَيْن تفيضانِ عُذوبَةً، وتَشعّان ذكاءً من وراء أهدابهما الكثيفة الطويلة. وكان ذا شَعْرٍ أسوَدَ ناعمٍ يُشْبِهُ زَغَبَ الطير، ويكوّن هالةً من الخواتم حولَ وجهٍ مستدير، تحفر خدَّيْه غَمَّازتان. وكان يرتدي ثوبًا جميلاً من التَّرْتَر(1) ذا خطوطٍ قرمزيّةٍ وصَفْراءَ، يلتفُّ على جسدِهِ الطِّفليّ بحيث يُبْرِز ما يتميَّزُ به هذا الجسمُ من جمالٍ يَتَّسِمُ به المُوَلَّدون(2). أَضِفْ إلى ذلك تلك الثقةَ التي كان يَصطنعها الطفلُ بشكلٍ مضحك، والانطلاقَ الذي ينِمّ عن أنّ الولدَ كان الطفلَ المقرَّبَ والمُدَلَّلَ عند مَواليه. ونظر الصغير إلى داخل الحجرة بفُضول.

«تعالَ، يا سيّد غراب!»، قالها السيّد شلبي، ثمّ صَفَر، وهو يلقي إليه بعنقود عنب:

«خُذْ، أَمسِكْ!»

وقفز الطفل بكلِّ ما في ساقَيْه الصغيرتين من قوّة وأمسكَ بطريدته، بينما كان السيِّد مُغْرِقًا في الضحك.

(1)- الترتر: نوع من القماش الصوفي المخطّط.

(2)- المولّدون: هم الخلاسيّون.

«تعالَ هنا، يا جيم!»

واقترب منه الطفل، فأمرَّ يدَهُ على شَعْره المجعَّد، وربّتَ ذقنَهُ قائلاً:

«والآن، أرِ هذا السيِّد، يا جيم، كيف ترقص وتغنِّي!»

فأخذ الولد يغنّي أغنية مضحكة من تلك الأغاني الزِّنجيّة المألوفة. وكان يتحرَّك، بجسده الصغير مع الغناء، حركاتٍ تَسْتَلُّ الضحكَ من أعماق القلوب.

وصاح هالي، وهو يرمي إليه بجزءٍ من بُرتقالة:

«أحسنْتَ، أحسنْتَ! يا لَهُ من ولد!.. اتّفقْنا.. تمّتِ الصَّفقة!»

وأردف وهو يضعُ يدَهُ على كَتِفِ شلبي:

«سآخذ هذا الولدَ أيضًا، فتكون به تصفية الحساب.. ألستُ متساهلاً؟»

وما إن انتهى من كلامه حتّى دُفِعَ البابُ برِفْق، وظهرت منه أَمَةٌ (جارية) خلاسيّةٌ، تناهز الخامسةَ والعشرينَ من العُمر، لا

يَشُكّ الناظرُ إليها في أنّها والدةُ ذلك الطفل. فقد كان لها نفسُ العينَيْن السوداوَيْنِ البرّاقتَيْن، بأهدابِهما الطويلةِ المُنْثَنِية، كما كان لها نفسُ الشعرِ الحريريِّ الأسْوَد. وكانت ملابسُها النظيفةُ تُظْهِرُ جمال قَدِّها الممشوق. ولم يَخْفَ على عينِ النخّاس(1)، النفّاذةِ الخبيرةِ، جمالُ يديها البَضَّتَيْنِ الصغيرتين، وصِغَرُ قدَمَيْها، ودقّة كاحلَيْها.

وسألها السيِّد، عندما رآها تتوقّفُ متردِّدةً:

«ما بكِ يا إليزا؟»

ـ معذرةً، يا سيِّدي، لقد جئتُ لآخذ هنري!»

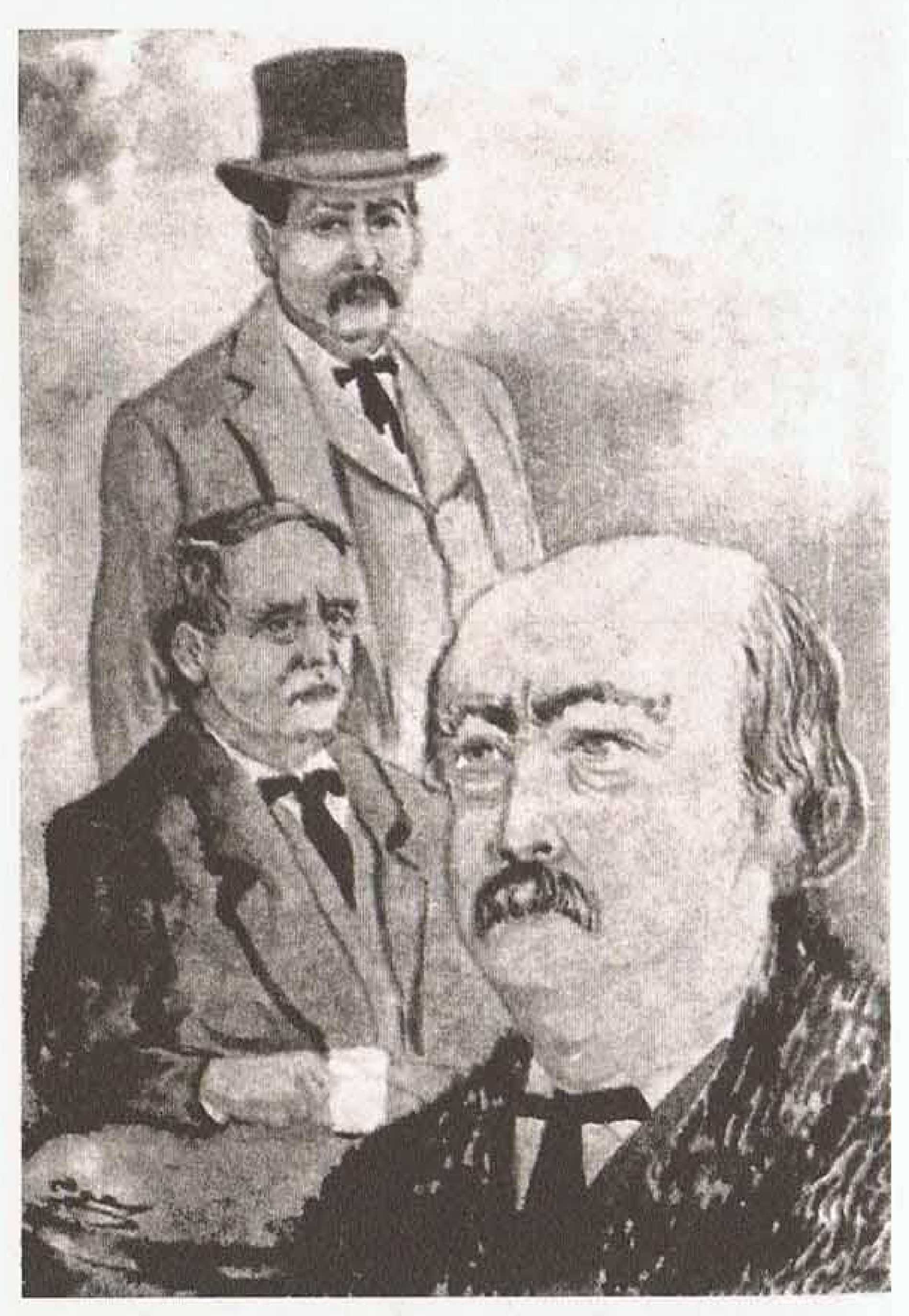
وجرى الطفلُ نحوها فخورًا بما كَسِبَهُ، قال السيِّد شلبي:

«ها هو، خذيه!»

فخرجتْ مسرعةً، وقد حملتِ الطفلَ بين ذراعيْها.

وقال السيِّد شلبي، ردًّا على اقتراح التاجر بضمِّ الطفل إلى الصفقة:

(1) ـ النخّاس: تاجر العبيد.



النخّاس يتحدّث عن إنسانيّته...

«إنّني أفضِّلُ ألّا أبيعَهُ، فأنا رجلٌ إنسانيّ، لا أحبُّ أن أَحْرِمَ أمًّا من ابنها!»

ـ «أجل، إنّني أفهَمُك! إنّ النساءَ يُضايقْنَ أحيانًا.. ولطالما لعنْتُ صراخَهُنّ وانتحابَهُنّ. لهذا تعوَّدْتُ أن أتفادَى مثلَ هذه المشاهد. فما عليكَ إلّا أن تُبْعدَ الأمّ مدّةَ يومٍ أو أسبوع، ولسوف ينتهي كلُّ شيء قبل عودتها. هنالك تعطيها زوجتُكَ قُرْطًا لأذنيْها أو رداءً جديدًا، أو أيَّ شيءٍ آخَرَ، لاسترضائها والتَّسْريَةِ عنها. إنّ هذه المخلوقاتِ لا تُشْبهُ ذوي البشرةِ البيضاءِ. ففي استطاعتِكَ إعادةُ الرِّضا إليها بحُسْنِ التصرُّف!»

قال السيِّد شلبي:

«دَعْني أفكِّرُ في هذا الأمر، وأبحثُهُ مع زوجتي. ولكنْ لا تترُكْ شيئًا، ممّا دارَ بيننا، يتسرَّب إلى الخارج، فإنَّ من شأنه، إنْ وَصَلَ إلى مسامعِ عبيدي، أن يَهيجَهُمْ، فتَصْعُبَ عليَّ تَهْدِئَتُهُمْ فيما بعد.»

ـ «ليكُنْ! إنّي أعِدُكَ بذلك.. ولكنْ لا تُطِلْ عليّ، فإنّني في عَجَلَةٍ من أمري، ولا بدَّ لي أن أعرفَ في أقربِ وقتٍ ممكنٍ علامَ قَرَّ رأيُكَ، حتّى أعرِفَ كيف أتصرَّف.»

بعد هذا الكلام، نهَضَ هالي وحيّا السيِّد شلبي وانصرف. وأخذ شلبي يحدِّثُ نفسَهُ قائلاً:

«كيف لا أستطيعُ أن أدحرجَهُ على هذا السُّلَّم؟ يا لَهُ مِنْ وَقِح! إنَّه يعلَمُ جيّدًا ما الذي يجعلُهُ متمكّنًا منّي! مَنْ ذا الذي كانَ يقولُ إنّني سأُضْطَرُّ، في يوم من الأيّام، إلى أن أبيعَ توم لنخّاسٍ لَعِينٍ من هذه الفئة الحقيرة؟! ولكنَّ هذا سوفَ يَحْدُث لسوء الحظّ.. وابن إليزا؟ أوّاه من الديون!»

كان السيِّد شلبي من طينةٍ نقيّة. فقد كان يُعامِلُ كلَّ مَنْ حوله بكرَمٍ ما بعدَهُ كَرَمٌ. ولم يكنْ يُهْمِلُ أيّ شيء مِنْ شأنِهِ أن يَهَبَ الصحّةَ والسَّعادةَ للزُّنوجِ الذين كان يَمْلِكُهُم. غيرَ أنّه وَجَدَ نفسَهُ مُنساقًا في مضارَباتٍ دون تَبَصُّرٍ أو رَوِيّة، فإذا بِهِ مُلْتزِمٌ بدَفْعِ مبالغَ باهظةٍ. وكانتِ الأوراقُ في يد هالي.. وهذا ما يفسِّرُ الحديثَ الذي دارَ بينه وبين هذا الرّجل.

وكانت إليزا، عندما اقتربَتْ من الباب، قد سَمِعَتْ من هذا الحديثِ ما يكفي لتفهم أنّ هناك نخّاسًا يُساومُ سيّدَها على شراء أحدِ مماليكه. وقد أحبّت أن تسمع المزيدَ، ولكنّ سيِّدتَها نادَتْها

فاضطُرّتْ إلى الابتعاد. غير أنَّ قلبها حدَّثها أنَّ المقصودَ هو ابنُها، فاضطربت وامتلأت أسًى ولوْعةً. عندئذٍ ضمَّتْ طِفلَها بقوّة إلى صدرها، كأنَّها تخشى أن ينتزعَهُ أحدٌ من بين يديها.. وما إنْ رأتْها سيِّدتُها على هذهِ الحالِ من الاضطراب، حتّى بادرتْها بقولها:

«إليزا، ما بكِ، يا ابنتي؟»

قالت الأمة:

«أوّاه، يا سيِّدتي!»

وتهالكتْ على أحد المقاعد والدموعُ تنهمرُ من عينيها:

«لقد كان مع سيِّدي أحدُ النخّاسين.. هل تعتقدين أنَّه يمكن لسيِّدي أن يبيعَ هنري؟»

وأخذت المرأة المسكينة تنتحبُ وتَشْهَق.

ـ «أوَهذا معقول، أيّتها الحمقاء؟ أنتِ تعرفين جيِّدًا أنَّ سيِّدَكِ لا يتعامل مع تجّار الجنوب، وأنَّه ليس من عادته أن يبيعَ عبيدَه. دَعِي عنكِ هذا، وكفكِفي دَمْعَكِ، وتعالَي سَرِّحيني. ثمَّ.. لا تتسمَّعي، بعدَ الآنَ، على الأبواب!»

ـ «لن أفعَلَ، يا سيِّدتي! ولكنْ.. هل توافقين على أن...؟»

ـ «ما هذا الجنون؟ بالطبع لن أوافق! لا تَعُودي إلى هذا الحديث! لأَهْوَنُ عندي أن أرى أحَدَ أولادي يُباع أمامَ عينيّ!»

واطمأنّتْ إليزا، بعد أن تحدَّثَتْ إليها السيِّدة بهذه اللهجة.

2 ـ الأمّ

منذ الحداثة وإليزا تقيم في بيت السيِّدة شلبي التي تتميَّز بالذكاء الحادِّ والقلب الكبير. وفي كلِّ مراحلِ حياتِها لَقِيَتْ ما يَلْقاه طفلٌ مُدَلَّلٌ من حبٍّ ومن رعاية.

ولا شكَّ في أنَّ جميعَ الذين زاروا أميركا الجنوبية قد لاحظوا ما تَتَّسِمُ به بعضُ المُوَلَّدات من رَهافةٍ في الذوق، وعُذوبةٍ في الصوت، ولُطْفٍ في التصرُّف. وكثيرًا ما تكون هذه الميزاتُ الطبيعية في أولئك الخلاسيّات مقترنةً بجمالٍ فاتنٍ أخّاذ. وقد زُوِّجت إليزا إلى شابٍّ من أبناء جِلْدتها، مُتميِّز بالوسامةِ والمهارة، يُدعى جورج هاريس، ويعيشُ في إحدى المزارع المجاورة.

وكان مالِكُ هذا الشابِّ قد أجَّرَهُ ليعمَلَ في مصنعٍ للأكياس. وما لبث الشابّ أن احتلّ المقامَ الأوّلَ في المصنع، بفضل ما كان يتمتّع به من المعرفة والألْمَعِيَّة، حتّى إنَّه اخترَعَ آلةً لنزع قشور القِنَّب. وشاع نبأ اختراعِهِ في المنطقة، حتّى وصل إلى مسامع سيِّده، وهو رجلٌ فَظُّ المعاملةِ، فاستشاطَ غضبًا، بعد أن رأى عبدَهُ متفوّقًا عليه. وراح يصيح: «ما حاجةُ مثلِ هذا العبدِ إلى اختراعِ الآلات؟ أَلِيَرْفَعَ رأسَه بين السادة؟ لا بدَّ من وَضْعِ حدٍّ لهذا العَبَثِ!» وصمَّمَ على أن يُعيدَهُ إلى المزرعة، ليَعْمَلَ في حَفْرِ الخنادق وقَلْبِ التُّربة. وكم كان عظيمًا دَهَشُ صاحِبِ المصنع، السيِّد ويلسون، عندما جاءه السيِّد هاريس يطلُبُ منه كاملَ الأجرِ الذي يستحقُّه جورج، لأنّه يريدُ استعادتَهُ في الحال.

وهكذا أُعيدَ جورج إلى المزرعة، حيث أُسْنِدَتْ إليه أَشَقُّ الأعمالِ الزراعيّة. ومنذ ذلكَ الحينِ، لم تخرُجْ من فمِهِ كلمةٌ لا تَنِمّ عن التعظيم والاحترام. ولكنَّ البريقَ الذي كان يُومِض من عينيْه، والغمَّ والقلقَ اللذين كانا يَعْلُوَانِ جبينَهُ، كلّ ذلك كان يُفْصِح بكلّ جلاءٍ عن أنّكَ لا تستطيعُ، مهما جَهِدْتَ، أن تُحيلَ الكائنَ البشريَّ إلى شيء من الأشياء!

وكان جورج قد تعرَّف إلى إليزا، واقترَنَ بها خلالَ تلك الفترةِ السَّعيدةِ، التي كان يعمَلُ أثناءَها في المصنع، حيث كان يتمتَّعُ بثقةِ رئيسِهِ، وكان لهُ مُطْلَقُ الحريّةِ في أن يغْدُوَ ويَرُوحَ حيثُ يشاء. وقد لقِيَ هذا القِرانُ ترحيبًا حارًّا من قِبَلِ السيدة شلبي، وظلَّت إليزا عامًا أو عامَيْنِ ترى زوجَها في أغلب الأحيان، فلم يُعَكِّرْ صفوَ الحياة، التي كان يحياها الزوجان، سوى فَقْدِ ولدَيْن تُوُفِّيا في مبدأ الطفولة. وقد أثَّرَ ذلكَ في إليزا تأثيرًا بالغًا، فاستبدَّ بها الحُزْنُ إلى درجة أنّ سيِّدتَها وَجَّهَتْ إليها المَلامَةَ ولكنْ بكثيرٍ من الرِّفق. على أنّ ما سرّى عنها حقًّا هو مجيءُ هنري الصغير، الذي أعاد إلى نفسِها السَّكينةَ والاطمئنان. وعلى هذا، فقد ظلّتْ إليزا سعيدةً في حياتها بصفةٍ عامّة، إلى يوم رأَتْ زوجها يُنْتَزَعُ بمنتهى العُنْفِ والوحشية من المصنع، ويُعاد إلى نِيرِ مالكه الظالم.

وفي ذات يومٍ، بينما كانت إليزا واقفةً على الشُّرفة تنظرُ بلَوْعةٍ واكتئابٍ إلى عربة سيِّدتها وهي تبتعد عن المنزل، إذا بيدٍ توضعُ على كتِفها، فالتفتت، فإذا بوجهها يتهلّل بِشْرًا، وهي ترى زوجَها الحبيبَ واقفًا إلى جانبها.

ودخل الاثنان إلى حُجرةٍ صغيرةٍ جميلةٍ، مفتوحةٍ على الرّدهة، تعوّدت أن تجلس فيها لِتَخِيطَ، وتكونَ على مَقْربةٍ من سيّدتها، فتسمع نداءها إذا نادتها. قالت المرأة الشابّة:

«لَكَمْ أنا سعيدةٌ!.. ولكن.. ما بالكَ لا تبتسم؟ انظُرْ إلى طفلنا كيف يَكْبُرُ بسرعة.. بحقّك أليسَ جميلاً؟»

وراحت ترفع خُصَلَ الشَّعرِ الفاحمِ عن جبهة الطفل، وتَزرَعُ وجهَه بالقبل. قال جورج بمرارةٍ وحزن:

«ألا ليتَهُ لم يولَدْ! بل ليتني، أنا نفسي، لم أجئ إلى هذه الدنيا!»

واستولى الدَّهَشُ والخوفُ على الزوجة المسكينة، فأَبقت رأسَها على كتِفِ زوجها، وراحت تبكي وتنتحب. ومن بين الدموع والشهقات خرجتِ الكلماتُ متقطّعةً من فمها، قالت:

«جورج، ما الذي حَدَث؟ أيُّ مصيبة حلّت بنا؟ أوَلَمْ نكن سعيدَيْنِ حتّى الآن؟»

ـ «بلى، يا حبيبتي!.. لقد كنّا سعيدَيْن، ما في ذلك من ريب!»

قال هذا وأخذ طفلَهُ، ووضعَهُ على رُكبتيه، وأخذ يلاطفه بحنان ويقول:

«إنّه صورةٌ صادقةٌ عنك، يا ليزي!»

ثمَّ أضاف قائلاً:

«إنّكِ أجملُ وأخلصُ امرأةٍ وقعَتْ عليها عيناي.. ومع ذلك لَكَمْ كنتُ أتمنّى لو أنّنا لم نَلْتَقِ في يوم من الأيّام! إنّ حياتي تافهةٌ حقيرةٌ كحياة حشرة في باطن الأرض! إنّني لست سوى عَبْدٍ مسكينٍ ضائعٍ تخلّى عنه الكون.. وفي انحداري أجرُّكِ معي إلى قاع الهاوية! لماذا يحاولُ كائنٌ مثلي أن يَصنع شيئًا؟.. أن يتعلّم شيئًا؟.. أن يَكُون شيئًا؟»

ـ «أنا أعلمُ أنّكَ عند سيّدٍ بالغ القَسْوة.. ولكن عليكَ بالصبر، أيّها العزيز، فلعلّ...»

فقاطعها قائلاً:

«الصبر! الصبر! ألم أصبر بما فيه الكفاية حتّى الآن؟ هل نطقْتُ بكلمة واحدة عندما انتزعني، دون أيّ مبرّر، من ذلك المصنع، الذي كنت فيه محلَّ الرعاية والعطف من الجميع؟ وقد كنت أتنازل له عن جميع ما أكسبه من عملي!»

ـ «لا شكَّ في أنَّ هذا شيء فظيع.. ولكنَّه سيِّدُك، على أيِّ حال!»

ـ «سيِّدي؟! ومَنْ ذا الذي سَوَّدَهُ عليَّ؟ إنَّني إنسانٌ مثله، بل إنّي أفُوقُهُ، فأنا أقرأ وأكتبُ أحسنَ منه، وقد تعلَّمْتُ كلَّ ما تعلَّمْتُ بنفسي، وليس له عليَّ أيُّ فضل في ذلك! فبأيِّ حقٍّ يجعل منِّي دابَّةً بين الدواب؟ إنَّه يريد أن يقتلَني.. يريد أن يُذِلَّني.. أمس بالذات، كنت أحملُ أحجارًا إلى العَرَبة، وكان السيِّدُ الصغيرُ واقفًا هناك يُفَرْقِعُ بسَوْطِهِ قريبًا من أُذُنَيْ الحصان، الذي خاف خوفًا شديدًا. فرجَوْتُهُ، بكلِّ أدبٍ أن يتوقّف عن هذا العمل، فلم يَحْفِلْ بكلامي. فكرّرتُ الرجاء مرّةً أخرى، فما كان منه إلّا أن استدارَ نحوي، وأخذ يضربني بالسَّوْط، ثمّ أطلقَ صيحاتٍ مُرْعبةً، وانطلق نحو والده يشكوني إليه ويدّعي أنَّني ضَرَبْتُهُ. وما عتّم والدُهُ أن جاء، وهو في قِمَّةِ الغضب. فربطني إلى جِذْعِ شجرةٍ وأعطى ابنَهُ رُزمَةً من العِصِيّ، وطلبَ إليه أن يَضْرِبَني إلى أن تَكِلَّ يداه. وهكذا كان!»

واكفهرَّ وَجْهُ العبد... أمّا زوجتُهُ فقد أخذتها الرّعدةُ، لأنّها لم تَرَ قطُّ زوجها على مثل هذه الحال، فقالت:

ـ «وماذا أنتَ فاعلٌ، يا جورج؟ إيَّاكَ أن ترتكب إثمًا من الآثام! إنَّ اللَّه مُنْجيك، دونَ ريبٍ، ما دمتَ تؤمن به وتفعلُ الخير. لقد قالت لي سيِّدتي إنَّه مهما بَدَتِ الظروفُ ضدّنا فإنَّ اللَّه حَرِيٌّ بأن ينتشلَنا ممّا نحن فيه.»

ـ «ما أيْسَرَ قَوْلَ مثلِ هذا الكلامِ على أناسٍ يجلسون على الأرائكِ الوَثيرة، ويسيرون ومن حولهم العبيدُ والإماء! ألا فليأخذوا مكاني لنرى إن كانوا لا يغيِّرون رأيهم! كم أودُّ أن أكون طيِّبًا، ولكنَّ قلبي يشتعِلُ اشتعالاً، ولا شيءَ يطفئ نارَه! إنَّكِ لم تعرفي بعدُ كلَّ الحقيقة!»

ـ «وماذا فوق ذلك؟»

ـ «إنَّ سيِّدي يكرَهُ السيِّد شلبي أشَدَّ الكُرْه، ويَكْرَهُ كلَّ من ينتمي إليه. وهو يقول إنَّهُ ارتكَبَ خطأً فادحًا بتزويجي خارجَ دائرته، وإنَّك تملأين رأسي بالصَّلَف والكبرياء ولهذا فسَيَمْنَعُني من المجيء إلى هنا، ويُجْبِرني على اتّخاذ زوجة أخرى، وقد أمَرني أمس بأن آخذ «مينا» إلى حجرتي، وإلّا باعني في الجانب الآخرِ من النهر!»

وردَّتْ إليزا، معترضةً، بسذاجة:

ـ «ولكنّ زواجنا زواج مسيحي!»

ـ «ألا تعرفين أنّه لا يحقّ للأمة أن تتزوّج؟ لا وجود للقانون في هذا البلد. فليس في استطاعتي أن أحتفظَ بكِ إن كان هو يريدُ التفريقَ بيننا! من أجل هذا بالذاتِ تمنّيْتُ لو أنّني لم أعرفك، أو لو أنّني لم أُخْلَقْ! وهذا الطفلُ المسكينُ الذي ينتظرُ مثلَ هذا المصير البائس...؟»

ـ «إنّ سيِّدَنا بالغُ الكرم!»

ـ «ولكنْ قد يموت هذا السيِّدُ، فيُباعُ الطفل!»

كانت هذه الكلماتُ أشبهَ بأنيابٍ تمزِّق فؤاد إليزا. فقد مرَّ أمامَ عينيها طَيْفُ النخّاس الذي كان يتداولُ مع سيّدها. وقد وَدَّت لو تُفْضِي إلى زوجها بما يَعْتَمِلُ في داخلها من مخاوفَ، ولكنّها لم تجرؤ على ذلك.

وقال الزوج بكآبة:

ـ «هيّا، يا حبيبتي إليزا، كُوني شجاعةً.. أستودِعُكِ الله! إنّني سأَرْحَل!»

ـ «تَرْحَلُ، يا جورج؟ وإلى أين؟»

ـ «إلى كندا! وعندما أصبحُ هناك سأشتريكِ! هذا هو الأملُ الأخير. إنّكِ في كَنَفِ سيِّدٍ كريمٍ، ولا أظنّ أنّه سيرفُضُ بَيْعَكِ.. سأشتريكِ وأشتري طفلنا!»

ـ «وإذا قُبِضَ عليك؟»

ـ «لن يُقْبَضَ عليَّ أبدًا! سأموتُ قبل ذلك.. إمّا الحريّة وإمّا الموتُ!»

ـ «كن حذرًا، يا جورج، ولا ترتكِبْ إثمًا! لا تَبْطشْ بنفسك ولا بأيِّ فردٍ آخر! إنّك تحت وطأةِ تجربةٍ خَطِرَةٍ، فقاوِمْ، وابتهِلْ إلى اللهِ أن يَمُدَّ إليك يدَ المعونة!»

قال جورج، وهو يأخُذُ يَدَيْ زوجتِهِ بين يديه، ويُغْرِقُ عينيْه في عينيها:

«أجل، يا إليزا! ولكن استمِعي إلى خِطّتي. لقد أرسلني سيِّدي برسالةٍ إلى السيِّد سيمر، الذي يَقْطُنُ على مسافةِ ميلٍ من هنا. وهو مُوقِنٌ بأنّني سأمرُّ عليكِ لأُفضي إليكِ بمتاعبي، فمنْ دواعي سرورِهِ أن أحمِلَ شيئًا من القَلَق إلى أُسرة شلبي. ومع هذا فسأضغَطُ على نفسي وأعودُ، إذْ إنَّ عليَّ أن أهيِّئ بعضَ الأشياء.

إنَّ هناك مَنْ يساعدني.. وبعد ثمانيةِ أيّام سأكُونُ في عِداد المتغيّبين عندَ نداء الأسماء. اِدعي لي، يا إليزا، فقد يستجيب اللّهُ دُعاءك، أنتِ المرأة البريئة! أستودعُكِ اللّه!»

ولبثا لَحَظاتٍ، وهما صامتان. ثمّ تبادلا بعضَ الكلمات، ومزجا دموعَهما الحرّى!

3 ـ سهرة في كوخ العمّ توم

كان كوخُ العمِّ توم بناءً صغيرًا من جُذوع الأشجار يقومُ في جوارِ المنزلِ الذي تقطُنُهُ أسرة شِلْبي. وأمام الكوخ بستانٌ صغيرٌ تختلِطُ فيه الخضارُ بالفراولة والتوتِ وعنبِ الذئب، وتزدهرُ جميعُها بفضل العناية المتواصلة. وكانت تعربشُ على الواجهة نبتةُ «البغنونية» المتسلّقة، ووردةٌ مختلفة الألوان.

أمّا من الداخل، ففي إحدى زواياه وُضِع سريرُ الزوجين، تمتدُّ عليه أغطيةٌ بيضاءُ كالثلج. وإلى جانب السرير قطعةٌ من سجّادة، كان من عادة العمّة كلو، زوجة توم والطاهية الأولى في منزل شلبي، أن تجلس عليها. هذا الجزء من الكوخ كان محلَّ

الاعتبار، لأنّه حجرةُ الاستقبال، وكانتِ العمّةُ كلو تحرِصُ على صيانته من عَبَثِ الأطفال. وكان في الزاوية المقابلة سريرٌ آخر.

أمّا جدرانُ الكوخ فقد عُلِّقَتْ عليها صُوَرٌ مضاءةٌ تمثِّلُ بعضَ المشاهد من الكتاب المقدّس، كما عُلِّقَتْ فوقَ المِدفأة صورةٌ للجنرال واشنطن.

في هذا الركن وُضِعَ مقعدٌ خشبيٌّ بدائيُّ الصُّنع جلَسَ عليه ولدانِ يكسُو رأسَيْهما شَعْرٌ كالصُّوفِ الفاحم، وتبرُقُ عيونُهما السوداء، وهما يراقبانِ طفلةً تَبْذلُ أُولى محاولاتها في السَّير.

وأمامَ المِدْفأة وُضِعَتْ مائدةٌ يكسوها غطاءٌ أبيض، وقد صُفَّت عليها أقداحٌ وأطباق، من صِنف جيّد، ممّا يدلُّ على أنَّ هناك وليمةً تُولَمُ.

إلى هذه المائدة جلسَ العمُّ توم، وهو أقوى وأحذقُ عاملٍ عند السيِّد شلبي. كان رجلاً متينَ البنيانِ، ذا صدرٍ عريض، وأطرافٍ مفتولةٍ قويّةٍ، ولونٍ كالأَبنوسِ اللمّاع. كانت جميعُ تقاطيع وجهه إفريقيَّةً نموذجيّةً، وكانت تعبِّرُ عن رصانة وتفكير، يمتزجان بالعاطفيَّة والطِّيبة. وكان الشعورُ بالكرامة، الذي تنطق به عيناه، يمتزجُ بالبساطة الرَّضيَّة المُطْمَئِنَّة.

كان العمُّ توم منهمكًا في رسم بعض الأحرف على لوح من الأرْدواز أمامه. وكان يُشرف على عمله ابنُ سيِّده، جورج شلبي، وهو غلامٌ في الثالثةَ عَشْرَةَ من عُمره.

قالتِ العمّةُ كلو، وهي تنظر بإعجاب إلى جورج:

«يا لهؤلاء البيضِ ما أحذَقَهُم! إنَّهم يعرفون كلَّ شيء! في هذه السِّنّ يعرف السيِّد جورج الكتابةَ والقراءةَ، بل ويأتي ليُعلِّمنا كلَّ مساء.. ما أكرَمَهُ!»

وصاح جورج:

«أيّتها العمّة كلو، إنَّني أكاد أموت جوعًا.. ألم تَنْتَه حلواكِ بعدُ؟»

ـ «في الحال!.. اِرفعْ كُتُبَك واستعِدّ!»

وجاءت الحلوى، وأكل جورج حتّى الامتلاء. وفي هذه الأثناء كانتِ العمّةُ تجلس، وقد وَضَعَتِ الطفلةَ الصغيرةَ على ركبتيها. أمّا الولدانِ الآخرانِ فقد كانا يأكلانِ نصيبَهما تحت المائدة، ويَشُدّانِ رِجْلَ أختِهما، بين لحظة ولحظة.

في كوخ العبيد كان يدور هذا المشهد، أمّا في منزل السادة فقد كان يجري مشهدٌ آخرُ يختلف عنه كلَّ الاختلاف. فأمام مكتبٍ نُثِرَتْ عليه الأوراقُ كان يجلس السيِّد شلبي في حُجْرته يَعُدّ رُزَمًا من الأوراق النقدية. وبعد أن انتهى سلَّمها إلى هالي تاجر الرقيق، الذي عدَّها بدوره، ثمّ قال:

«لم يَبْقَ الآن سوى التوقيع!»

فأخذ شلبي العقدَ ووقَّعه، ثمّ أعطاه إلى النخّاس.

وذكّر السيِّد شلبي النخاسَ بالوعد الذي قطعَهُ على نفسه بألّا يبيع توم إلّا لمن هو موضعُ ثقة.

4 ـ عواطف البضاعة البشرية

دخل السيِّد والسيِّدة شلبي إلى جناحهما الخاصّ استعدادًا للنوم. فجلس السيِّد شلبي يتصفَّح بعضَ الرسائل، بينما وقفت زوجته أمامَ المرآةِ تتَّخذ زِينَتَها الليليَّةَ تعاونها في ذلك إليزا. ولاحظت السيِّدةُ الشحوبَ البادي على وجه الأَمَة، وشرودَ نظراتها، فصَرَفَتْها وبقِيَتْ مع زوجها. ثمَّ قالت له:

«بالمناسبة، يا آرثر، من هو هذا الرجلُ العديمُ التربيةِ، الذي أجلسْتَهُ اليوم معنا على المائدة؟»

ـ «إنَّه رجل أُصَرِّف معه بعضَ الشؤون!»

فسألْتُهُ، وقد لاحظتْ أنَّه ضاق ذرعًا بهذا الحديث:

«أهو تاجرُ رقيقٍ؟»

ـ «وما الذي يوحي إليكِ بأنَّه كذلك؟»

ـ «لا شيء! غير أنَّ إليزا دخلتْ عليَّ اليومَ مضطربةً دامعةَ العين، وقالت إنَّك كنتَ في مفاوضاتٍ مع أحد النخّاسين لبيع ابنها! وقد أجبتُها بأنَّك لا تتعاملُ مع مثل هذا الصِّنْفِ من الناس، وأنَّك لا يمكن أن تُقْدِمَ على بيع أحدٍ من عبيدك.. وخاصّة ابنها.»

ـ «حسن، يا إميلي! لقد كانت هذه هي خطّتي حتّى الآن، غير أنَّ وضعي المالي قد تردَّى إلى درجة وَجَدتُني معها مُجْبَرًا على بيع توم وهنري الصغير!»

ـ «توم الرجل الطيّب؟! عبدكَ الذي أخلَصَ لكَ الوُدَّ منذُ الحداثة؟! ألم تَعِدْهُ بأَنْ تَمْنَحَهُ الحرية؟ ولكن.. لِمَ اخْتَرْتَ هذين بالذّات؟»

ـ «لأنَّهما يَعُودانِ عليّ بمبلغ محترم!»

ـ «لماذا لا تضحِّي بالمال؟.. إذًا لكنتُ أسهمتُ معك طواعيَةً! كيف يمكنُ لي أن أرفعَ رأسي بعدَ الآنَ، بين هؤلاء القومِ البسطاءِ المساكين، إذا كنّا، من أجل مبلغٍ من المال، نتنازلُ عن توم، ذلك الرَّجُلِ الممتاز؟ لقد كنتُ أتحدّثُ إلى إليزا باستمرارٍ عن واجباتِ الأمّ نحو أطفالها، فماذا أقولُ لها الآن، إذا كنتَ تنتزع ابنها من أحضانها؟!»

ـ «لقد كانت هذهِ الوسيلةَ الوحيدة لإنقاذي! فإنَّ جميع ممتلكاتي مرهونةٌ عند هالي.. فإذا لم أبعْهُ هذين، اضطُرِرْتُ إلى بيع الجميع دفعةً واحدةً.. فهل تفضّلين ذلك؟ لقد كنتُ تحت رحمتِهِ، ولم يكن أمامي سوى أن أطيعَهُ لإنقاذ ما يُمكن إنقاذُهُ!»

كانت إليزا قد اختبأت في مكان قريب، فلم تَفُتْها أيّة كلمةٍ من الحديث الذي دارَ بين الزوجِ وزوجتِهِ. وما إن انتهَيا حتّى انسلَّت إلى حُجرتها حيث كان يرقُدُ طفلُها هنري، فوقفتْ أمامَ سريرِهِ، وأخذتْ تتأمَّلُهُ، وهو ينامُ بهدوء، وَخُصَلُ شعره تتناثر على وجهِهِ الجميل البريء، وفمُهُ القِرمزيُّ ينفرجُ عن ابتسامةٍ

راضيةٍ تُضيءُ مُحيَّاهُ، ويداهُ الصغيرتانِ تمتدّان فوق الغطاء. وتمتمت الأمّ قائلةً:

«أيُّها الطفلُ المسكينُ، لقد باعوك.. ولكنَّ أُمَّكَ سوف تُنقِذُكَ!»

ثمّ أخذَتْ وَرَقةً وخطَّت عليها رسالةً إلى السيِّدة شلبي تشكُرُها فيها على الموقفِ الكريمِ الذي وقفَتْه ـ إذْ سمعَتْ كلَّ شيء ـ وترجو منها أن تغفِرَ فِرارَها، لأنَّها مُضْطَرَّةٌ إلى ذلكَ من أجلِ ابنِها.

بعد ذلكَ أيقظَتِ الطفلَ، الذي شَعَرَ أنَّ شيئًا خطيرًا يَحْدُث. وبينما كانت تُلْبِسُه كانت توصِيْهِ بألّا يُحْدِثَ أيّةَ حركةٍ أو يتكلَّمَ، وتقولُ له:

«إنَّ رجلاً سيِّئًا سيأتي ليأخذَ هنري الصغيرَ من ماما ويحملَهُ إلى مكانٍ مظلمٍ بعيد.. ولكنّ ماما لا تريدُ أن تَتْرُكَ صغيرها هنري.. ماما ستُلْبِسُ هنري وتَهْرُبُ به حتّى لا يأخذَهُ الرجلُ السيِّءُ!»

وما إنِ انتهَتْ من إلباس طفلها حتّى ضمَّتْهُ إلى صدرها وخرجت به في هدوء.

ولـمّا وصلت إلى كوخ العمّ توم، نَقَرَتْ برفق على زجاج الباب، فما لبثت كلو أن فتحَتْ لها. وسُرعانَ ما رأت، على ضوء الشمعة، ما ارتسم على وجه إليزا وفي عينيها من الخوف والقلق والشرود.

ـ «ما بِك، يا إليزا؟»

ـ «أنا هاربة... هاربة بطفلي لأنَّ السيِّد قد باعه!»

وردَّد توم وكلو بدَهَشٍ واستنكار رافعَيْن أيديهما:

ـ «باعَهُ، باعَهُ؟!»

ـ «نعم باعَهُ! لقد سمعتُ السيِّد يحدِّث زوجته بأنّه باع ولدي هنري.. وباعكَ أنت، يا توم!.. باعكما إلى نخّاسٍ سيأتي هذا اليومَ بالذات ليتسلَّم البضاعة!»

وظلَّ توم واقفًا، مبسوطَ اليَدَيْن، جامدَ العينين كأنّه في حُلْم. ثمَّ جلس على كرسيّه ببطء، كأنَّه بدأ يفهم حقيقة الموقف، وترك رأسه ينخفض حتّى كاد يلامس ركبتيه. وصاحت كلو باستنكار:

ـ «ماذا فعل حتّى يبيعَهُ السيِّد؟»

ـ «لقد عارضَتِ السيِّدةُ في ذلك، ورَجَتْ زوجها أن يلغي الصفقة. ولكنَّه قال لها إنَّه واقع تحت رحمة هذا الرجل، فإذا لم يسدِّدْ دَيْنَهُ اليومَ، فسيُضْطَرُّ إلى بيع كلّ شيء وإلى الرحيل من هنا!»

والتفتت كلو إلى زوجها وقالت:

ـ «ما رأيك، أيُّها العجوز المسكين؟ إنَّ الفرصة ما زالت أمامك.. قم وارحل مع إليزا.. إنَّ معك إذنًا بالتجوُّل في أيِّ وقت.. هيّا! وسأُعِدُّ لكَ متاعَكَ!»

فرفع توم رأسه بِتُؤَدَة، وأجال بصره في ما حوله بحزن، ولكن بهدوء، ثمّ قال:

ـ كلّا!.. لن أذهب! لترحلْ إليزا وحدها! إنَّ عليها أن ترحل، فالطبيعة تحتِّم ذلك. ولكنَّكِ سمعتِ ما قالت.. يجب أن أُباع، وإلّا ضاع كلّ شيء: الناس والأشياء جميعًا!»

وتنهَّد رافعًا صدرَهُ العريضَ، ثمّ استطرد:

ـ «لقد تعوَّد السيِّد أن يجدني في مكاني، وسيجدني هذه المرّة أيضًا! وما نكثت بعهدٍ في حياتي، فلن أبدأ بذلك اليوم! إنّه

من الأفضل أن أذهب وحدي فلا أتسبَّب في خسران البيت وبيع الجميع. يجب ألّا نلوم السيِّد يا كلو.. إنّه سيُعنى بك وبهؤلاء الأولاد المساكين!»

وأدار وجهه نحو السرير الذي يرقد فيه الصغار وانفجر بالبكاء. قالت إليزا:

«لقد رأيت زوجي عصرَ اليوم.. إنَّه عازمٌ على الهرب، لأنَّه لم يعد يطيق ظلمهم. حاولي أن تتَّصلي به، يا كلو، لتخبريه بأنَّني سأبذل جهدي للوصول إلى كندا.. وإذا لم يقدَّرْ لنا أن نلتقي، فليظلَّ نقيًا حتّى نلتقي في السماء.. بلِّغيه حبّي!» ثمّ اختفت في الظلام.

5 ـ الاكتشاف

في صبيحة اليوم التالي دقَّت السيِّدة شلبي الجرس لإليزا عدّة مرّات، ولكنَّها لم تحضر. فأرسلت خلاسيًّا صغيرًا ليفتِّش عنها. ولمّا عاد كان في غاية الاضطراب، لأنَّ إليزا كانت قد غادرت المنزل. قال السيِّد شلبي:

ـ «لقد ساورَتْها الشكوك فهربَتْ!»

وتـمتمت السيِّدة شلبي:

«حمدًا للّه!»

سادت الفوضى نحو ربع ساعة للتفتيش عن الهاربة. وكان هناك شخص واحد يعلم ولا يتكلَّم! العمّة كلو، التي كان الحزن يسدل ستارًا على وجهها، بعد أن كان هذا الوجه مشرقًا باستمرار.

واصطفَّ نحو اثني عشر زنـجيًا كجناح الغراب ليكونوا أوّل المستقبلين للسيِّد وليحملوا إليه نبأ خيبته.

وأقبل هالي بثياب السفر، فأُلقي إليه الخبر من كلّ جانب. فراح يشتم ويصيح ويهدر، ممّا أضحك الزنوج المتجمّعين، الذين حرصوا على الوقوف بعيدًا عن متناول سوطه.

واتَّجه إلى حجرة استقبال شلبي ودخل دون اتِّئاد إلى وسط الحجرة وصاح:

«هيه، يا شلبي.. إنَّ ما حدث لشيء غريب حقًا.. إنَّ البنت قد هربت مع ابنها! بصراحة، كنت أتوقَّع أن أعامَل بشرف في هذه القضية!»

قال شلبي، وقد استفزَّه هذا التصرُّف:

«ماذا أفهم ممّا تقول؟ إنَّ من يشكِّك في شرفي ليس له عندي سوى جواب واحد!»

إزاء هذا الردّ تضاءل النخّاس وخفض صوته قائلاً:

ـ «على أيّ حال يصعب على شخص عَقَدَ صفقةً حسنةً أن يجد نفسه مخدوعًا!»

ـ «لو لم أكن مقدّرًا الصدمة التي أصبت بها، لما تجاوزتُ عن فظاظتك ودخولك عليَّ بهذا الشكل.. بل لما احتملت منك أيَّ غمز! ما لمخلوق أن يضع شرفي موضع الشكّ! ومع هذا فإنّي أرى من واجبي أن أساعدك وأحميك. خذ رجالي وخيلي وحاول أن تجد ضالّتك!»

ثمّ غيَّر لهجته الجافّة وقال له:

«إنَّ خير ما تفعلُهُ الآن هو أن تُعاوِدَ المرحَ وتتناول معنا طعام الفَطور، ثمّ نرى في الأمر من بعد ذلك.»

لو أنَّ وزارة سقطت لما أحدث سقوطُها مثلَ ما أحدث بيع توم في المزرعة. فلم يكن لأحدٍ من حديثٍ سوى تلك

المسألة. وقد زاد الاضطرابَ هربُ إليزا، الذي كان أوَّلَ حادث من نوعه عند السيِّد شلبي.

ونادى أحد العبيد رفيقه قائلاً:

«هيه، يا سام! إنَّ السيِّد يريد أن نسرج الجوادين جيري وبيل لنرافق السيِّد هالي ونساعده على اللّحاق بإليزا وطفلها!»

ـ «سترى إن كنتُ لا أعيدُها!»

ـ «عليك أن تفكّرَ في هذا الأمر: فالسيِّدة لا تريد أن تستعيدَها، ذلك أنّني، عندما أخبرتها بأنَّ ليزا قد رحلت، سمعتها تقول: الحمد لله!»

وعاد صموئيل بالجوادين بيل وجيري. وكان حصان هالي مهرًا شرسًا، فلمّا رآهما وثب وصَهَلَ وكاد يَقْطَعُ حبلَهُ. فأقبل عليه صموئيل بحجّة أنّه يريد تهدئتَهُ. وكانت في الساحة شجرةُ دَرْدارٍ ضخمةٌ تكتسي الأرضُ بثمرها الشائك على مساحة واسعة، فالتقط صموئيل ثمرة من هذه الثمار، واقترب من الجواد، وأخذ يلاطفه ويربّت على عنقه ويحكّه. ثمّ تحوّل إلى سرجه يريد أن يعدّله، فدسّ تحته ثمرة الدردار، دون أن يشعر به

أحد. وهذا يعني أن أيَّ ثقل يوضع فوق السرج سيهيج الحصان، دون أن تترك الثمرة أثرًا يلفت النظر.

وظهر هالي أخيرًا، وقد هدأت ثورته بعد القهوة الممتازة التي تناولها. وما إن لامسَ سَرْجَ جواده، حتّى قفز الجواد قفزةً هائلةً، وقذف بفارسه بعيدًا، على العشب الجافّ الناعم الذي خفّف من عنف الصدمة. وجرى صموئيل ليعين هالي على النهوض ويمسك بالحصان. وكان يضع على رأسه قبّعةً من الجريد هيّأها خصّيصًا للمناسبة، فلمّا أقبل على الحصان الهائج واقترب منه داسًّا الجريدَ بين عينيه، لم يزِدْهُ إلّا ثورةً وهياجًا، فانطلق في عرض المروج الشاسعة، بينما ارتمى صموئيل على الأرض. وانطلق، خلفَ الحصان الشارد، بيل وجيري، اللذان كان أندريه قد تركهما، وزادت في سرعة عدوهما تلك الصيحاتُ الهائلة التي كان يطلقها أندريه مُوْهِمًا أنّه يريد أن يستوقفهما.

وتبع ذلك مشهدٌ بالغُ الطرافة: فقد كان صموئيل وأندريه يجريان ويصرخان، وكانت الكلاب تنبح، وخرج جميع الزنوج الصغار يَعْدُون في كلّ الاتجاهات ويملأون المكان صياحًا وضجيجًا، سعيًا وراء الأفراس بحماسة كاذبة.

ويبدو أنَّ حصان هالي قد لذّ له أن يشترك في هذه التمثيلية المضحكة. وكان السهل يمتدّ على مسافة ربع ميل، وتقوم على حدوده غابة صغيرة، فكان المهر يتوقّف، ويترك الساعي وراءه يقترب منه، حتّى إذا أصبح منه على متناول اليد، انطلق كالسهم وهو يرفس ويصهل.

وكان هالي يَجْري يمينًا ويَسارًا، ويضرب الأرض بقدمه ويُطْلق الشتائم. أمّا السيِّد شلبي فقد كان يحاول، من أعلى درجات المدخل، أن يصدر الأوامر، ولكن دون جَدْوى، وأمّا السيِّدة شلبي فقد كانت تُتابع تلكَ المشاهدَ في دَهَشٍ وسرور.

وفي نحو الساعة الثانية بعد الظهر أقبل صموئيل منتصرًا، وقد امتطى ظهر جيري، وجرَّ حصانَ هالي بالحبل. وكان العَرَقُ يسيلُ من وجهه. فقال باعتزاز:

«ها هو الحصان! لولاي لما قدر أحدٌ أن يُمْسِكَهُ!»

وتمتم هالي قائلاً:

«لولاكَ لما حَدَثَ الذي حدث!.. هيا، لننطلِقْ!»

فصاح صموئيل بصوت يثير العطف:

«ماذا تقول، يا سيِّدي؟ أتريد أن تقتلنا وتقتل الخيل؟ إنَّنا نكاد نهلك، نحن والجياد. في استطاعة سيِّدي أن يبقى إلى ما بعد الغداء!»

وبعد أخذٍ وردٍّ قرَّر هالي البقاء.

6 ـ لوعة أمّ

لعلَّ أحدًا لم يشعرْ بمثلِ ما شعرَتْ به إليزا من الشقاء والضياع، وهي تبتعد عن كوخ العمّ توم. ولكنَّ عاطفةَ الأمِّ، وهي أقوى من كلِّ عاطفة، كانت تملأ نفسها بالرعب، نظرًا للخطر الذي يَتَهَدَّدُها في طفلها. وكانت، وهي تحملُ الطفلَ النائمَ، تشعُرُ وكأنَّهُ أخفُّ من الريش، حتّى إنَّها دهشت، هي نفسُها، من القوّة التي شعرت بها.

واستقبلت أشعّةَ الفجر الأولى، وقد وصلتْ إلى الطريق العامّة، وأصبحتْ على بُعْد عِدَّةِ أميالٍ من المزرعة التي غادرَتْها. ولمّا بدأت الخيولُ والعرباتُ تمرُّ على الطريق، فهمتْ أنَّ سَيْرها العَجُولَ واضطرابَ هِنْدامِها لا بدَّ أن يَلْفِتا إليها أنظارَ

المارّة. فوضعتِ ابنَها على الأرض، وأصلَحَتْ زِينَتَها، ورتّبَتْ شَعْرَها، ثمّ سارَتْ سيرًا طبيعيًا.

وما لَبِثَتْ أن وصلتْ إلى غابة مقطُوعةِ الأشجارِ يجري في وسَطِها جدولٌ رَقْراقٌ، فجلست على ضفّة الجدول، لتُطْعِمَ ابنَها ثمّ عادَتْ بعدَ ذلكَ إلى المَسِيرِ.

وكانت قد ابتعدَتْ أميالاً عن جميع الأماكن التي قد يوجد مَنْ يَعْرِفُها فيها. فعاوَدَها شيءٌ من الاطمئنان، خاصّةً وأنَّها كانت شديدةَ البياض، حتّى إنّه لا يمكنُ إلّا لعين خبيرة أن تعرفَ أصلها الخلاسي.. وعلى مثالِها كان ابنُها.

ووصلتْ قبل الغروب إلى قرية ت. على نهر أوهيو(1)، وقد أخذ التعبُ منها كلَّ مأخذ. وأوّلُ شيء حدّقَتْ إليه هو النهر، الذي يقومُ على ضفّته الثانية شاطئُ الأمان والحرّية.

كان ذلك في أواخرِ الربيع، وقد تضخّمَ النهرُ وجرى هادرًا يدفع في جَريانه كُتَلاً من الجليد مختلفةَ الأحجام.

ولمّا كانت الضِّفّةُ من ناحية كنتاكي يَبْرُزُ منها نُتوءٌ يعترضُ النهرَ، فقد حُجِزَ هناك رُكامٌ من كِسَفِ الثلج يشكّل طوّافةً هائلة

(1) ـ الرافد الشرقي لنهر المسيسيبي بالولايات المتّحدة الأميركيّة.

وغير متساوية، تَعُوقُ حركة النقل بين الضِّفّتين. ونظرت إليزا إلى هذا المشهد بعينٍ حزينة، وقالت بينها وبين نفسها: «لا بدّ أنّ المعدّية متوقّفة!»

وأسرعت إلى نُزُلٍ قريب عرفت فيه أنَّ رجلاً سيحاول أن يقطع النهر في الليلة التالية ناقلاً بعض البضائع. وكان ابنها يبكي من التعب. فأدخلتْهما صاحبة النُزُل إلى حُجرة فيها سريرٌ مريح، وأرقدتِ الطفلَ عليه.

لنتركِ الآن المرأة التاعسة، ولنعُدْ إلى الذين كانوا يلاحقونها.

كان جميع من في المنزل يشعرون بأنَّ السيِّدة شلبي لم تكن منزعجة من هذا التأخير، لذلك وقعت حوادثُ لا تحصى من شأنها أن تؤخّر الغداء ساعاتٍ: فهذا خادمٌ غبيٌّ يقلب وعاء «الصلصة» على الأرض، فلا بدّ من تحضير صلصة جديدة، وهذه كلو تبالغ في العناية بإعدادها.. وهذا ولد يقع بماء الشرب الذي حمله من العين، فينسكب الماء على الأرض، وعليه أن يعود إلى العين ليأتي بماء جديد، وهذا خادم آخر يوقع قِدر السمن على الأرض..

بالطبع لم يكن هالي على ما يرام. ورغم هذا فقد أرسل السيِّد شلبي في طلب توم. ولمّا جاء قال له بكثير من اللّطف:

«توم، يجب أن أنبِّهَكَ إلى أنّ عليَّ تعهُّدًا بعشرة آلاف دولار، لهذا السيِّد، إذا لم تكن حاضرًا في المكان الذي يعيِّنه لك. إنَّ هذا اليوم لك، ففي إمكانك أن تذهب حيث شئت.»

قال توم:

«شكرًا لك، يا سيِّدي!»

وتدخَّلَ هالي قائلاً:

«لا تنسَ أنّني سأصرُّ، إن خُنْتَ سيِّدك، على أخذ مبلغ التعهُّد برُمَّتِهِ.»

وقال توم موجِّهًا الخطاب إلى السيِّد شلبي:

«سيِّدي، عندما وضعَتْكَ سيِّدتي الكبيرة بين ذراعيَّ للمرة الأولى كان عمرُك سنةً واحدة. أمّا أنا فكنت في الثامنة من عمري. وأنا أسألك الآن: هل قصَّرْتُ يومًا في واجبي، وهل خُنْتُ لك عهدًا في حياتي؟»

فاغرورقت عينا السيِّد شلبي بالدموع وقال:

«يعلم اللّهُ أنَّك لم تَقُلْ سوى الحقيقة.. ولو خُيِّرْتُ، لما تخلَّيْتُ عنك مقابلَ ذهبِ الأرض!»

وقالت السيِّدة شلبي:

«سنعود إلى شرائك متى تمكنّا.. تذكَّر، يا سيِّد هالي، إلى من تبيعه، وأعلِمْني بذلك.»

وقام هالي ليبدأ المسير، ومعه العبدان، حتّى يلحقوا بإليزا. وقد استطاع صموئيل بذكائه أن يعيق مساره فترة لا بأس بها، إذ قاده في طريق مقطوعة، فاضطرُّوا إلى العودة ثانية، لسلوك الطريق العامّة. وهكذا وجدت إليزا أمامها متَّسعًا من الوقت لتأخذ قسطًا من الراحة. وعندما وصل هالي والزنجيّان إلى النُّزُل، الذي كانت فيه، كان قد مضى على نوم ابنها زهاء ثلاثة أرباع الساعة.

كانت إليزا واقفة عند النافذة، وما لبث صموئيل أن أبصرها. كان الموقف بالغ الدقّة. فعمل صموئيل على أن تقذف الريح قبّعته. عندئذ صاح صيحة مرعبة، بثّت الذعر في نفس إليزا، فارتدّت عن النافذة بسرعة. وترجّل الثلاثة للدخول إلى النُّزُل.

وكان لحجرة إليزا بابٌ جانبيٌّ يؤدّي إلى النهر. فما كان منها إلّا أن أخذتِ ابنَها بين ذراعيها، وانطلقت من هذا الباب انطلاقَ السهم، وقفزتْ من أعلى الدَّرَج إلى الأرض. ولمحها النخّاسُ، وهي تنحدر خفيفةً نحو النهر وتختفي وراء الضِّفّة. فقفز تاركًا جواده، وصاح على صموئيل وأندريه، وراح يعدو في أثرها، كما يعدو كلب صيد وراء أيّل.

كانت البرهة حرجة.. فالمتعقِّبون وراءها، ولن يلبثوا أن يدركوها. هنالك، بتلك القوة العصبية التي لا يتمتّع بها إلّا اليائسون، قفزت من فوق المياه المتقلِّبة الهادرة، وهي تطلق صيحةً مُدَوِّية، وانطرحت فوق عوّامة الجليد. لقد كانت الوثبةُ مُذْهِلَةً، لا يمكن أن تَحدُثَ إلّا لمن هم في قمّة اليأس، بل الجنون. فصرخ كلٌّ من هالي وصموئيل وأندريه بصوت واحد، رافعين الأيدي نحو السماء.

وتكسَّرَتْ قطعة الجليد العملاقةُ وغاصت تحت ثقلها. ولكنّها لم تستقرّ عليها طرفةَ عين، حتّى انتقلت إلى غيرها وغيرها وهي ما تزال تطلق صيحاتها الوحشية، وتنزلق، وتتشبَّث، وتقوم في خفّة الغزال، وقد تزايدت قوَّتُها مع تفاقم

الخطر. وسقط الحذاء من إحدى قدميها وانتُزِع الجورب، وتجرَّحت قدمُها، وسالت منها الدماءُ تاركةً آثارها على الجليد. لم تكن ترى شيئًا أو تحسُّ بشيء. ثمّ بدا لها خيالُ الضِّفّة الثانية، وكأنَّها في حُلْم، ورأت رجلاً يَمُدُّ لها يَدَهُ من اليابسة. قال لها الرجل وهو يسحبها:

«كائنةً من تكونين فأنت بنتٌ باسلة!»

وسرعانَ ما عرفت إليزا وجه وصوت المزارع الذي يقطن في جوار المنزل الذي غادرَتْهُ. وصاحت:

«سيّد سيمر، أنقِذني.. خبِّئني!»

ـ «ماذا؟.. ألست مملوكة السيِّد شلبي؟»

ـ «ابني، يا سيِّد سيمر.. لقد باعه.. وهناك، على الضِّفّة الأخرى يقف سيِّدُه! آه، يا سيِّد سيمر.. إنَّ لك ابنًا صغيرًا!»

قال، وهو يساعدها على الصعود:

«أجل! إنَّ لي ولدًا.. أنت امرأة شجاعة، وأنا أُحب الشجاعة أينما كانت!»

وكانت نبرةُ صوتِهِ تَنْطِقُ بعطفٍ لا يخلو من القسوة.

وعندما وصلا إلى أعلى الحاجز، توقَّفَ الرجل وقال لها:

«كنت أودُّ أن أساعدَكِ، ولكنْ ليس لديَّ مكانٌ آخُذُكِ إليه. غير أنَّ في استطاعتي أن أدلَّكِ على المكان المناسب.»

وأضاف وهو يشير إلى منزل جميلٍ منعزل على الشارع الرئيسي من القرية:

«هؤلاء قومٌ كرام، ولا بدَّ أن يساعدوكِ، لأنَّهم متعوّدون على مثل هذه الأشياء. أنتِ امرأةٌ جريئة تستحقِّين الحريّة، ولو كان الأمر بيدي لوَهَبْتُكِ إيَّاها!»

ـ «باركَ اللّه فيكَ يا سيِّدي!»

قالت إليزا هذا وابتعدت بخطًى خفيفة ثابتة، وهي تحمل الطفل على صدرها، بينما وقف المزارع يُتْبِعُها نظره.

كان هالي، وهو يراقب هذا المشهد، أشبه بمن نزلت على رأسه صاعقة. فما إن غابت إليزا عن بصره حتّى نظر إلى الزّنجيين مغتمًّا ومرتابًا، وقال:

«لا بدّ أنَّ في جسدها عفريتًا من الجنّ!»

7 ـ إنسانيّة عضو مجلس الشّيوخ

كانت الأضواء تتلألأ في البهو الفخم بمنزل السيِّد بيرد، عُضْو مجلس الشيوخ الأميركي. وكانتِ الزوجةُ ترتِّبُ المائدةَ، التي وضعت عليها أدوات الشاي، بينما كان الشيخ يحتذي خُفًّا صوفيًّا جديدًا صنعتْهُ له زوجته.

قالت السيِّدة بيرد لزوجها، وهي ما تزال تنظِّم المائدة:

«أصحيح أنَّه مُرِّر في مجلس الشيوخ قانونٌ يحظر تقديم أيِّ طعام أو شراب إلى أولئك الملوَّنين المساكين الذين يَقْدمونَ إلى هنا؟ إنَّ جمعيةً مسيحيةً، مؤمنة حقًّا، لا يمكن لها أن توافق على قانون كهذا!»

ـ «نعم، لقد وافق المجلس، يا عزيزتي، على قانون يمنع تقديم المعونة للعبيد القادمين من كنتاكي. إنَّ هؤلاء الساخطين، الذين يطالبون بإلغاء الرِّقِّ، قد تجاوزوا الحدّ في تمرُّدِهم، حتّى بلغ الغضبُ بإخواننا الكنتاكيّين مبلَغَهُ. فمن حُسْن السياسة تهدئةُ مخاوفهم.»

ـ «لا أعتقد أنَّ هذا القانونَ يمنع المرء من أن يؤوي في بيته لمدّةِ ليلةٍ هذه الكائناتِ البائسة؟! أو أن يملأ بطونَهُمُ الخاوية.. أن يجدَ لهم رِداءً قديمًا يَسْترون به عُرْيَهُم! أليس كذلك؟»

ـ «ولكنَّ هذا معناه مساعدتهم، يا عزيزتي!»

وانتصبت السيِّدة بيرد وقد التهبتْ وَجْنتاها، وتقدّمت نحو زوجها وقالت بحزم:

ـ «وأنت، هل وافقتَ على هذا القانون؟ قل لي إنَّكَ لم توافق!»

ـ «يا اللّه! بلى وافقتُ! إنَّ سياستي...»

فقاطعته قائلة:

ـ «باللّه، ألا تخجلُ من نفسك، يا جون؟ هذه المخلوقاتُ الضعيفةُ التاعسة، التي لا سقفَ يحميها ولا ملجأ يؤويها.. هذا القانون الجائر سأكون أنا أوّل من يخالفه، عندما تسنحُ لي الفرصة.. وأرجو ألّا يطولَ بي الانتظار!»

وامتدّ بينهما الحوارُ حول هذا الموضوع. وكان الشيخُ رقيقَ العاطفة بطبيعته. وقد تأثّر بكلامِ امرأته، حتّى إنّه بدأ يندمُ

على ما فعل، يَشْهَدُ بذلك شرودُهُ، وهو يُخرج منديله، بين الفينة والفينة، ليمسح نظّارته.

وهنا أقبل كوجكس، الزنجي العجوز، الذي يشرف على المنزل، وطلب من السيّدة أن توافيه إلى المطبخ.

ولم تمضِ سوى لحظات حتّى دعتِ المرأةُ زوجَها وهي في غاية التأثّر. فلمّا دخل السيّد بيرد المطبخ فوجئ بمنظر مذهل: فلقد رأى امرأة مهزولة الجسد، ممزَّقةَ الأثواب، دامية القدم، قد مُدِّدَتْ على مقعدين وهي فاقدةُ الوعي، وقد تجمّدت من شدّة البرد. وعلى وجهها الرائع الحزين، كان من الممكن ملاحظة القَسَمات المميِّزة للعنصر المحتقَر المُضْطَهَد عند أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي.

وبينما كانت الأمّ دينا تحاول إعادة المرأة إلى وعيها، وتدفئ قدَمَيْها المجلّدتين، كان السيِّد بيرد وزوجته والخادم ينظرون بصمت وقد استولى عليهم الاضطراب.

قالت السيِّدة بيرد، وقد رأت المرأةَ تستعيدُ وَعْيَها شيئًا فشيئًا وتُجيل حولها نظرةً شاردة:

«يا للمخلوقةِ المسكينة!»

وصاحت إليزا نصفَ واعية:

«هنري، ولدي هنري.. هل أخذوه؟»

ولما سمع الطفل صوتها جرى نحوها رافعًا يديه. فقالت:

«إنّه هنا!»

ونظرتْ إلى السيّدة بيرد قلقةً راجية:

«أجيْريه، بربّك، أيّتها السيّدة! لا تدعي أحدًا يأخذه!»

فأجابت السيّدة بيرد بعطف:

«لا تخشَي شيئًا، أيّتها المرأةُ المسكينة! لن يَمَسَّهُ أحدٌ بسوء.. أنتما هنا في أمان!»

ـ «ليجزك اللّه عنّي خيرَ الجزاء!»

قالت الأَمَة هذا وانخرطَتْ في البكاء. واستطاعت السيّدة بيرد أن تهدّئ من روعها آخر الأمر. ثمّ نُصِبَ لها سرير، بجانب النار، رقدت عليه وهي تضمّ ولدها إلى صدرها.

وبعد أن ترك السيّد و السيّدة بيرد المرأة وطفلها يستريحان بعض الوقت، عادا إلى المطبخ ليستمعا إلى قصّتها، فوجداها جالسةً أمام الموْقد بعد أن أفاقت من نومها.

وراحت إليزا تروي ما حدث لها. فلمّا أخبرتهما أنّها قطعت نهر أوهيو على الجليد دُهِشا دَهَشًا عظيمًا.

وتساءل السيّد بيرد، متعجّبًا، كيف أقدمت على ترك بيتٍ كانت تجد فيه العناية والرعاية، والتخلّي عن سيّدَين عاملاها كما تعترف، أطيبَ معاملة؟ فركّزَتِ الأَمَة على السيّدة بيرد نظرًا ذكيًّا نفّاذًا، فوجدتها ترتدي ملابس الحداد، ففاجأت الجميع بالقول:

«سيّدتي، هل فقدتِ ولدًا في يوم من الأيّام؟»

فانتفض السيّد بيرد، لهذه المفاجأة، انتفاضةً تَنِمّ عن الألم الدفين، وأجهشَتْ زوجتُهُ بالبكاء، ومع ذلك قالت:

«نعم، واحسرتاه.. لقد فقدتُ ابنًا منذ عهد قريب!»

ـ «إذًا. فلا بدّ لك أن تشعري بما أعانيه من ألم.. فلقد فقدْتُ ولدين اثنين، الواحدَ تِلْوَ الآخر، ولم يبقَ لي سوى هذا.. وهو عزائي الوحيد، ومِحْوَرُ آمالي.. وقد كانوا على وَشْكِ أن يبيعوه من تجّار الجنوب، فيذهب وحده وهو الذي لم يبتعِد قَطُّ عنّي. ولمّا عرفت أنّه بِيعَ بالفعل حملته وفررت به ليلاً. فاقتفَوْا

أثري، وكادوا يقبضون عليّ. فقد كنتُ أُحسُّ بهم وأسمع أصواتهم، فما كان منّي، إلّا أن قفزت على قطع الجليد. كيف استطعت أن أعبر؟.. لست أدري! كلّ ما أعرفه هو أنَّ رجلاً أعانني على الصعود إلى الضِّفة.»

كانت تتحدَّث دون أن تُرْسِلَ دمعةً أو زفرة.. فلقد جفَّ دمعُها من طول ما تألّمت وما سَفَحَتْ من الدموع.

فسألها السيِّد بيرد وهو يُغالب تأثُّرَهُ:

«أليس لكِ زوج؟»

ـ «بلى! ولكنّه مِلْكٌ لرجل آخر، شديدِ القسوة عليه، يهدِّدُهُ ببيعه في الجنوب.. وهذا يعني أنّني لن أراه مرّةً أخرى.»

وسألتها السيِّدة بيرد بعطف:

«وإلى أين تريدين أن ترحلي؟»

ـ «إلى كندا.. لو كنتُ أعرف الطريق!»

وأضافت بسذاجة:

«أهي بعيدةٌ.. كندا هذه؟»

ـ «أكثر ممّا تتصوَّرين، ولكنّنا سنحاول أن نساعدك. نامي الآن وسنرى غدًا ماذا نفعل.»

وعاد السيِّد بيرد وزوجته إلى البهو. كان الشيخ في غاية القلق. وقد أوضح لزوجته أنَّ النخّاس لا بدّ أن يحضر منذ الفجر، وأنَّ العثورَ على الأَمَة وابنها في منزله سيُشَكِّلُ، بالنسبة إليه، فضيحةً سياسيةً تعودُ عليه بأبلغ الأضرار، خاصّةً بعد الموقف الذي اتّخذه، في مجلس الشيوخ، من قضية الرِّق. وأخبرها بأنَّ هناك مزارعًا اسمُهُ جون ڤان ترومب، يقطن على بعد أميال، يستطيع أن يتدبر أمر المرأة. فهذا الرجل، الذي كان يملك عدداً وفيرًا من العبيد، أعتق جميع عبيده واشترى لهم مزرعة ليسكنوا فيها ويستغلّوها لحسابهم.

ودخلت السيّدة بيرد إلى حجرتها حيث جمعت بعض ملابس ابنها المُتَوَفَّى، وهي تُرْسل الدموع السَّخيّة، ووضعتها في صُرّة، ثمّ جلست لتطيل أحد أثوابها، من أجل أن تُعْطيَها جميعًا إلى المرأة. وفي منتصف الليل حمل الشيخ الأَمَةَ الهاربةَ وابنَها في عربته وسار.

لقد تحمّلوا كثيرًا من العناء، لأنَّ الأمطارَ الغزيرةَ، التي كانت قد هطلت، أحدثت في الطريق فَجَواتٍ وبِرَكًا من الأوحال

عميقةَ الغَوْر. وقد أوشك الشيخ أن يغرقَ في الأوحالِ لولا أن انتشله كوجكس.

وبعد صراع طويل مع الطبيعة وصلوا إلى مزرعة جون ڤان ترومب، الذي أخذ على عاتقه أمر حماية المرأة وترحيلها إلى حيث تشاء.

8 ـ تسليم البضاعة

كان كوخُ العمّ توم، في ذلك الصباح من شهر شُباط، لا يدخل من نوافذه سوى شُعاع شاحب حزين. وكانت جميع الوجوه تعكس ما في القلوب من لوعة ومن ألم. وكانت كلو تكوي قميصًا لتوم والدموع تسيل على وجنتيها. أمّا توم فكان يجلس إلى جانبها وقد فتح كتابه المقدَّس على ركبتيه واعتمد برأسه على راحته، وأخذ يقرأ بعينيه.

وبعد لحظات، قام من مقعده واقترب من سرير الأولاد، الذين لم يكونوا قد استيقظوا في ذلك الوقت المبكر. وراح يطيل النظر إليهم، ثُمّ تمتم قائلاً:

«إنّها المرة الأخيرة!»

وقالت كلو:

«أنا أعلم أنّ عليَّ أن أتجلّد.. ولكن كيف السبيل إلى الصبر؟ لقد قالت السيِّدة إنّها ستعود إلى شرائك، في مدى عام أو عامين. ولكنّ الذين ينحدرون نحو الجنوب لا يعودون.. إنّهم يُقْتَلون هناك!»

ـ «سلّمتُ أمري إلى الله! لا شيءَ يتخطّى الحدودَ التي رَسَمَها المَوْلى. لقد كان البيعُ من نصيبي أنا، ولم تباعي لا أنتِ ولا الأولاد.. وهذا وحدَهُ كافٍ لأن أحمدَ اللّه عليه! فأنتم هنا في مأمنٍ. أمّا أنا فسيَتَولى اللّهُ رعايتي.»

لقد كان توم يسيطرُ على آلامه ومخاوفه الدفينة لكي يواسي الذين يُحبّهم. كان العبدُ حين يَنْشَأ، تترسّخ لَدَيْهِ فكرةٌ بأنّ أفدَحَ عقابٍ يُمْنى به هو بيعُهُ في الجنوب.. إنّه لأهونُ عليه بكثير أن يهدَّدَ بالجَلْدِ والتعذيبِ من أن يهدَّد بالجنوب.

كان الولدانِ ينظرانِ تارةً إلى أمِّهما وتارةً إلى أبيهما، أمّا الطفلةُ الصغيرةُ فكانت تبكي بكاءً متقطّعًا. ونهضت كلو عن مائدة الفطور الأخيرة قائلة:

«سأُعِدّ لك حقيبتك!»

وبينما كانت تُعِدّ الحقيبة جاءت السيِّدة شلبي، وقالت:

ـ «توم، لقد جئتُ إليك...»

ولم تكملْ كلامها، فقد انفجرتْ بالبكاء. وبكى الجميعُ لحظاتٍ، ثمّ كَفْكَفَتِ السيِّدةُ دَمْعَها وقالت:

«لا أَستطيعُ الآن أن أُفيدَكَ بشيء يا صديقي المسكين، إذا أعطيتُكَ مالاً، فإنَّهم سَيَسْلُبونَكَ إيّاه دونَ شكّ. ولكنّني أعاهدكَ أمامَ اللّهِ بأن أتسقّط أخبارَكَ على الدَّوام، وأن أستَعيدَكَ في اللحظة التي يُصْبحُ فيها ذلك في إمكاني!»

وجاء الأولادُ يعلنونَ وُصول هالي. ودفعَ هالي الباب بقدَمِهِ بطريقة وَحْشِيَّة، وظلّ واقفًا والغضبُ بادٍ على وجهه، من جرَّاءِ الفشلِ الذي أصابه، والرِّحلةِ الليليَّةِ الشاقّة، ثمَّ قال:

«تعالَ، أيُّها العبدُ.. هل أنتَ على استعداد؟»

ولمّا رأى السيِّدةَ شلبي رفع لها قبّعته قائلاً:

«في خدمتك يا سيِّدتي!»



العمّ توم وزوجته كلو...

ونهض توم بهدوء، وحمل صندوقَهُ الثقيل على كاهله، وسار وراء سيّده الجديد. وحملت كلو ابنتها الصغيرة لترافقه حتّى العربة، بينما سار الولدان في المؤخّرة، وهما يبكيان.

وتجمَّعَ العبيد، كبارًا وصغارًا، حول العربة ليودِّعوا رفيقهم الأكبر، الذي كان لرحيله وقعٌ مؤلمٌ في نفوسهم.

وصعد توم إلى العربة، وأقبل هالي، فأخرج من تحت المقعد قيدًا حديديًّا ثقيلاً وضعه في رِجلَي توم. وسَرَتْ هَمْهَمَةُ استنكار من الجمع المحتشِد هناك. وصاحت السيِّدة شلبي من أعلى الدرج:

«سيِّد هالي، أؤكِّد لك أنَّ هذا الاحتياطَ لا لزومَ له على الإطلاق!»

ـ «وما يدريني، يا سيِّدتي؟ لقد خسرتُ، في هذا المكان بالذات، عبدًا بخمسمئة دولار.. ولا أريد أن أجازفَ مرّةً أخرى!»

وقال توم:

«يؤسفني جدًّا ألّا أرى السيِّد جورج! أرجو أن تُبْلغيه تحيّاتي القلبيَّة!»

كان جورج في زيارة لأحد أصدقائه في المنطقة، لهذا لم يكن يَعْرِفُ ما حلَّ بتوم.

أمّا السيِّد شلبي فقد ابتعد في ذلك اليومِ عن المزرعة حتّى لا يَشْهَدَ هذا الموقفَ المؤلم.

وساطَ هالي حصانَهُ، فانطلقتِ العربةُ بينما كان توم يُلقي على المنزل النظرةَ الأخيرة، لقد راحتِ الأشياءُ المألوفةُ تختفي عن عينيه الواحدةَ تِلْوَ الأخرى، كأنّها أشباح.

وما قطعتِ العربةُ مسافةَ ميلٍ حتّى توقَّف هالي أمام دكّان حدّادٍ لإصلاح زوج من الأصفاد.

في تلك اللحظةِ سمع توم وَقْعَ حوافر جوادٍ يَعْدو. وما أفاق من ذهول المفاجأة حتّى كان السيِّدُ الصغيرُ جورج يطوِّقه بذراعيه وهو يصيح باستنكار:

«يا لَلْعار! لو كنتُ رجلاً لما كان لمثل هذا أن يحدث!»

ـ «سيِّد جورج، لكم فرّجْتَ عنّي بقدومك! فقد شعرتُ بألم عميق وأنا أرحَلُ دون أن أراك!»

وهنا حرّك توم قدمه، فرأى جورج القيدَ، فصاح وهو يرفع يديه نحو السماء:

«يا لها من وقاحة! لا بدَّ لي أن أقتل هذا النَّذْلَ العجوز!»

ـ «لا ترفَعْ صوتك، يا سيِّدي، فهذا لا يخدِمُني في شيء، بل من شأنه أن يُوغِرَ صدرَهُ عليَّ!»

ـ «سأكظِمُ غَيْظي من أجلك!»

وأضاف بصوت منخفض:

«خذ دولاري الفضيَّ هذا، فقد نصحَتْني كلو بأن أثقبَهُ وأُدْخِلَ فيه حبلاً دقيقًا.. هيّا علِّقْهُ في عُنُقِكَ، وأَخفِهِ تحت ثوبك حتّى لا يأخذَهُ هذا الصعلوك!»

وبعد أن علَّقه له في عُنُقِهِ استطرد قائلاً:

«احتفظْ به واذكُرْ، كلَّما نظرتَ إليه، أنَّني سآتيكَ يومًا وأعودَ بك. أجل، سأُعيدُكَ!»

وخرج هالي من دُكّانِ الحدّاد، وهو يحمِلُ القَيْدَ الذي استَصْلَحَهُ. فوجَّه إليه جورج الخطابَ بكثيرٍ من التعالي، قائلاً:

«اِعلَمْ أيُّها السيِّد أنَّني سأُطْلِعُ أسرتي على الطريقة التي تُعاملُ بها توم!»

قال هالي بسخرية:

«أُسعِدْتَ صباحًا!»

ـ «كنت أعتقد أنَّك تخجل من المتاجرة بالرجال والنساء ومن تَقْييدهم بالسلاسل كالحيوانات.. يا لَها من مِهْنة بشعة!»

ـ «ما دام أهلُك المبجَّلونَ يشترونهم، ففي إمكاني أن أبيعَهُمْ.. والبيعُ والشراء سِيّان!»

ـ «عندما أكبر، لن ألجأ إلى أيٍّ منهما! وداعًا يا توم تشجَّعْ!»

فردّ عليه توم بحنان وإعجاب:

«وداعًا، يا سيِّد جورج! باركَ اللّه فيك!»

وعاد هالي مسرعًا نحو واشنطن. وقال لتوم في أثناء الطريق:

«إنّنا سائرانِ إلى واشنطن.. هناك سأُودِعُكَ السجنَ لأتمكّن من تصريف أعمالي!»

وفي ذلك المساء باتَ أحدُهما في سجن واشنطن والآخر في أحد الفنادق!

9 ـ النُّزل

في عشية يوم غائمٍ نزل أحدُ المسافرينَ في فندق ريفيٍّ صغيرة بكنتاكي. كان البهوُ الكبيرُ يَغُصُّ بالناس. وكان العبيدُ يَرُوحون ويجيئون، بنباطيلهم الواسعة وقمصانهم الضيِّقة، وهم يُؤَدّون الخدماتِ لأسيادهم.

كان القادمُ قصيرَ القامة، حَسَن البِزَّة، تبدو على وجهه الصراحة والطِّيبة. وقد جلس قربَ النار دون أن يترك مِظَلَّتَهُ. ولـمّا رأى النزلاء يتجمّعون أمام إعلان أُلصِقَ على الجدار، سأل عن فحواه، فقيل له إنَّه يتعلّق بعبدٍ آبق(1) فاقترب السيِّد ويلسون ـ وكان هذا هو اسمه ـ ليقرأ الإعلان الذي جاء فيه:

(1) ـ آبق: هارب.

«هرب من منزل السيِّد هاريس العبد الخلاسيّ جورج.. طوله ستّ أقدام ـ لونه أبيض تقريبًا ـ شعره أسود مجعّد ـ شديد الذكاء ـ يتحدَّث جيِّدًا ـ يجيد القراءة والكتابة ـ سَيُوهِم أنَّه من البيض ـ على ظهره وكاهليه آثارُ جروحٍ عميقة ـ يدُه اليمنى موسومةٌ بحرف «هـ» ـ أربعمئة دولار لمن يعيده حيًّا أو ميتًا.»

قال أحد القارئين إنَّ مثل هذه الإعلانات لطخةُ عارٍ في جبين ولاية كنتاكي. ووافقهُ على رأيه السيِّد ويلسون.

في هذه اللحظة توقّفَت أمام النُّزُل عربةٌ صغيرة ذات عَجَلتين، يقودها خادم ملوَّن، ويجلس فيها رجل حسن الهندام.

كان الرجلُ طويلَ القامة، أسمَرَ اللون، يَلُوح أنَّه إسبانيّ. وقد لفت أنظارَ الجميع بوسامته وأناقته، وهو يتوجَّه بخطى رصينة إلى المكتب، حيث سجّل اسمه: هنري بتلر من أوكلند، وطلب من صاحب النُّزُل جناحًا منعزلاً. ثمّ استدار وقرأ الإعلان دون أيّ اكتراث.

أمّا السيِّد ويلسون فكان يتابعه بفضول. لقد خُيِّلَ إليه أنَّه التقى السيِّد بتلر في مكان ما... ولكن أين؟ ثمّ وضحت الصورة

في مخيِّلتهِ، فتقدَّمَ من بتلر هذا، الذي ابتَدَرَهُ قائلاً وهو يمدّ إليه يده:

«السيِّد ويلسون، على ما أعتقد؟ لا تؤاخذني لأنّني لم أعرِفْكَ في البداية.. أرجو ألّا تكون قد نسِيْتَني: بتلر، من أوكلند!»

ـ «كلّا، طبعًا!»

قالها السيِّد ويلسون وكأنَّهُ في حُلْم.

في هذه اللحظة أقبل زنجيٌّ صغيرٌ يُعْلِن أنَّ الجناحَ قد أعِدّ. فطلب السيِّد بتلر من السيِّد ويلسون أن يسمَحَ له بدقائقَ من وقتهِ ليحدِّثه.

وعندما أصبحا منفردَيْن في الحُجرة، أقفل بتلر البابَ بالمفتاح، وجاء ليقف في مواجهة السيِّد ويلسون الذي صاح: «جورج!»

ـ «أجل، جورج! لقد نجحتُ تمامًا في تغيير شكلي.. أليس كذلك؟»

ـ «إذًا هَرَبْتَ! إنَّك تلعبُ لعبةً خطرة! إذا وقعت في أيديهم فإنَّك ستُهانُ وتُعذَّبُ وتُرْسَلُ إلى الجنوب!»

ـ «إنّني أجرِّب حظّي!»

وفتح جورج مِعْطَفَهُ وأرى السيِّد ويلسون خنجرًا ومسدّسين يحملهما حولَ وسطه، وقال:

ـ «هاكَ انظُرْ! إنّني على استعداد للقائهم! ولن أذهبَ أبدًا إلى الجنوب! ألست إنسانًا مثلَكَ؟ اُنظُرْ إلى وجهي وجسدي ويديّ.. إنّ أبي سيّدٌ منكم.. من أهالي كنتاكي.. ولكنّه لم يتنازلْ للعناية بي. لقد تركني أُباعُ مع كلابهِ وجيادِهِ.. وقد رأيت أمّي تُباعُ أمامي بالمزادِ مع أولادِها السبعة. لقد بيع إخوتي إلى سبعة أسياد مختلفين. وقد ركعتْ أمّي أمام سيِّدي تَضْرَعُ إليه أن يشتريَها معي، فما كان منه إلّا أن رفسَها بقدمه ليُبعدَها عنه. لقد رأيتُ هذا بعينَيْ رأسي، يا سيِّد ويلسون! إنّ آخر ما أذكرُهُ من أمّي هو صدى نحيبها وصراخها، في الوقت الذي كانوا يحملونني فيه بعيدًا عنها وأنا مربوطٌ على فرس. واشترى سيِّدي شقيقتي الكبرى إميلي الجميلة الطيِّبة. وقد فرحتُ في بادئ الأمر لأنّها بجانبي، ولكنّ ذلك ما عتّم أن أصبح مصدر شقاء لي! ثمّ رأيتها ذاتَ يومٍ تَرْحَلُ مصفَّدةً إلى أورليان الجديدة، مع مجموعة من

العبيد والإماء، اشتراها أحد النخّاسين. وكانت تلك آخرَ مرّةٍ أراها فيها.»

«أمّا أنا فلم أعرف قطُّ سوى السوط والشتم والجوع. وحتّى اليوم الذي دخلت فيه إلى مصنعك لم أسمع كلمة طيّبة واحدة! لقد شجّعْتني، أنت، على العمل، ودفعْتني إلى تعلّم القراءة والكتابة والاهتمام بالثقافة.. ويعلم اللّه كم أنا حافظٌ هذا الجميل! في هذا الوقت بالذات عرفتُ زوجتي، تلك المخلوقة الطيّبة الرائعة، لقد عرفتُ السعادة حقًّا عندما تزوّجتها. ولكنّ سيّدي ما لبث أن عاد فأخرجني من عندك بسبب حسده وغيرته. ولم يكتفِ بذلك، بل أرادني أن أترك زوجتي وأتّخذ امرأة أخرى. وكلّ هذا تجيزه قوانينُكم البيضاء في هذه البلاد!»

كان جورج يتحدّث وهو يَذرع الحجرة جيئةً وذهابًا بخطى واسعة. وقد تأثّر السيّد ويلسون، العجوز الطيّب تأثّرًا بالغًا لسماعه قصّة جورج، حتّى إنّه أخرج منديله وجفّف عينيه، وهو يقول:

«لتحمل الشياطين جميع الأسياد! إلى الأمام، يا جورج، إلى الأمام! ولكن كن على حذر! أين زوجتك؟»

ـ «لست أدري! لقد حملتْ طفلنا ورحلت.. واللّه وحده هو الذي يعلم إن كنّا سنلتقي!»

ـ «وهذا الزنجي الذي معك؟»

ـ «رجل مؤمن هرب من كندا في العام الماضي، ولكنّه علم أنّ أمّه تُخْضَع لتعذيب وحشيّ، فعاد لإنقاذها. إنّه يرافقني إلى أوهيو ليُسْلِمني إلى أيدٍ أمينة!»

10 ـ عند جماعة الكويكرز

في مطبخ واسع تبدو النظافة والترتيب وحُسْن الذوق على كلّ ما فيه، جلست إليزا الهاربة في مقعد هزّاز مريح تقرأ في كتاب. لقد نحل جسمها، وكان يرتسم على قَسَمات وجهها الشاحب ألمٌ صامت دفين.

وكانت تجلس بالقرب منها امرأة يتراوح عمرها بين الخامسة والخمسين، والستّين، ترتدي الملابس الخاصّة

بجماعة الكويكرز(1). تلك كانت السيِّدة الطيِّبة راشيل هاليداي. قالت السيِّدة:

«خبّريني يا إليزا.. أأنتِ ما زلتِ مصمّمةً على الرحيل إلى كندا؟»

ـ «نعم يا سيِّدتي! فلست أجرؤ على البقاء هنا!»

ـ «وماذا ستعملين هناك؟»

وارتعشت يدا إليزا وتساقطت دموعها على الكتاب، ولكنّها قالت بتصميم:

«سأرى!.. أرجو أن أُوَفَّقَ إلى عمل!»

ـ «أنت تعرفين أنَّ في إمكانك أن تبقي هنا ما تشائين!»

ـ «شكرًا لك يا سيِّدتي! ولكنَّني لا أنام الليلَ من الخوف. فالليلةَ الماضيةَ بالذات رأيت ذلك الرجلَ في الحُلْم.. رأيتُه يدخل الفِناء..»

وبدأت إليزا ترتجف.

(1) ـ هم طائفة الأصحاب أو المهتزّين وكانوا يؤكّدون على البساطة في العيش ويكرهون الحرب كرهًا شديدًا.

وفُتح الباب ودخلت امرأةٌ قصيرةٌ بدينةٌ ترتدي ملابس الكويكرز. واستقبلتْها راشيل بحرارة، وقالت:

«هذه هي، يا روث، صديقتنا إليزا هاريس وابنها اللذان تحدّثت إليك عنهما.»

فسلّمت روث على إليزا وكأنَّهما صديقتان قديمتان. وفي تلك اللحظة دخل سيمون هاليداي، وقال بنبرة ذات معنى:

«لقد أخبرني بيتر ستلبنس بأنَّه سيأتينا اليوم ومعه بعض الأصدقاء!»

ثمّ دعا زوجته إليه وأنبأها بأنَّ بيتر أخذ العربة أمس وعاد بامرأة عجوز ورجلين أحدهما يدعى جورج هاريس. لنخبر أوّلاً روث، حتّى لا توتّر المفاجأة في إليزا.

ولمّا سمعت روث النبأ صفّقت وقفزت من الفرح. فدعتها راشيل إلى الهدوء. ثمّ نادت إليزا وأخذتها إلى إحدى الغرف، وجعلت تحدّثها بلطف وتقول لها:

«لقد رأف الله بحالك، وأنعم على زوجك بالخلاص من منزل العبودية!»

فاحتقن وجه إليزا في الحال، ثمّ ما لبث أن شحب، وكادت تسقط، لولا أن جلست على أحد المقاعد. فقالت راشيل بحنان:

«تشجّعي، يا ابنتي.. إنّه في رفقة أصدقاء.. وسيكون هنا هذه الليلة!»

وأخذت إليزا تردّد في ذهول: «هذه الليلة.. هذه الليلة!» وكأنّ الكلماتِ قد فقدت مدلولاتها في ذهنها.

ولمّا عادت إلى وعيها، كانت ممدّدة على سرير، وفوقها غطاء، وروث بجانبها تفركُ لها يديها بالكافور.

وبدأت أعصابُها المتوتّرةُ تتراخى، كما بدأ الشعور بالأمان يتغلغل في أعماق كيانها... ثمّ غابت في أحلام لذيذة. رأت في الحلم أنّها في بلد جميل، وأنّ ابنها يلعب ويمرح بحرّية وسعادة. وكانت تسمعُ خُطى زوجها تقترب.. وهذهِ دموعُهُ تَسْقُطُ على وجهها.. أهي تحلم؟ إنّه لم يكن حُلمًا: فقد هبط الليل منذ وقت طويل.. وطفلها يرقُدُ في سلام.. وها هو جورج يَنْشِجُ بجانب سريرها!

غير أنّ الصباحَ كان سعيدًا. فقد وُضعت المائدة، وجلس إليها الجميع. وكانت هذه المرةَ الأولى التي يجلس فيها عبيدٌ إلى مائدة، مع نفر من البيض، جلوس النّدّ للنّدّ.

11 - إيڤانجيلين

كانت أشعّةُ الشمس، المائلة إلى الغروب، تتراقص على صفحة نهر المسيسيبي. وكانت هناك باخرةٌ تجري في النهر العظيم، وقد أُثْقِلَتْ بحمولة ضخمة. كانت بالات القطن مكوّمة على جوانبها، على ظهرها، وفي كلّ مكان. وكان يخيَّل للرائي أنّ كتلة هائلة، رصاصيّة اللون تسير فوق الماء. ولكن إذا دقّقتَ النظرَ، عن كَثَب، رأيتَ بين هذه البالات صديقنا توم، وقد انطوى في مُقدَّم السفينة.

ويبدو أنّ توصيات السيِّد شلبي قد آتت ثمارها، فقد لمس هالي ما يتمتّع به توم من حُسن الخلق، فأولاه ثقته، وتركه يروح ويجيء على ظهر الباخرة كما يشاء.

وقد كسب توم احترام الجميع دون استثناء، بما كان يبديه من التفاني في إسداء المعونة إلى كلّ من يحتاج إليه..

وكان بين ركاب السفينة شابٌ نبيل غنيّ، يُدْعى سانت كلير، ويقطن في أورليان الجديدة. وكانت تصحبه ابنته البالغةُ خمسَ سنوات، وتشرف عليها سيّدة تبدو أنَّها إحدى قريباته.

كانت البنتُ في غاية النشاط والحيوية، فهي لا تستقرّ في مكان، كأنَّها نسمةٌ خفيفةٌ من أنسام الصيف. وهي من النوع الذي، إذا رآه المرء، لا ينساه من بعد ذلك. إنَّها صورة مثالية للجمال الطفوليّ، لولا امتلاء خدّيها وجسدها، الذي يعطيها سنًّا أكبر من سنّها الحقيقيَّة. ولم يكن أبرز ما في وجهها هو جمال التقاطيع، بل ذلك الحلم البعيد الغريب، الذي يطالعك من بين القسمات.

كانت تطير هنا وهنالك راقصةً مترنِّمةً، والابتسامةُ تعلو شفتيها القِرمزِيَّتَيْن. ولكنَّها، عندما تمرُّ قرب العبيد والإماء المُصَفَّدين ترتسم على وجهها أماراتُ الألم والشرود، وتنظر إليهم بعطف بالغ، وتحاول أن ترفعَ السلاسلَ لتعودَ مرّة أخرى، حاملةً إليهم الحلوى والجوز والبرتقال لتوزّعها عليهم.

وكان توم، الذي تجذبه البساطة والطفولة باستمرار، يتابع بنظره تلك المخلوقة الرائعة باهتمام متزايد يومًا بعد يوم.

وبدأت الصبيّة الصغيرة تأنس بتوم، الذي يحسن ألف لون ولون ممّا يجذب الأطفال كرسم الوجوه المضحكة على الجوز، وصنع السلال الصغيرة بنوى الكرز وصنع الصفّارات.. وسألها يومًا عن اسمها فقالت: «إيڤانجيلين سانت كلير! ولكن بابا يدعوني إيڤا.. وأنت؟»

ـ «أنا، اسمي توم.. ولكنّ الصغار في كنتاكي، حيث كنت، تعوّدوا أن يسمّوني العمّ توم!»

ـ «وأنا سأناديك مثلهم.. والآن إلى أين أنت ذاهب، يا عم توم؟»

ـ «لست أدري، يا آنسة إيڤا! سأباع بالمزاد العلني، ولا أعلم من نصيب من سأكون.»

ـ «في استطاعة والدي أن يشتريك.. سأكلّمه في ذلك.. وستكون سعيدًا!»

ـ «شكرًا لك، يا آنسة إيڤا!»

وتوقّفت السفينة في إحدى المحطّات الصغيرة لتتزوّد بالوَقود. وانطلقت الصغيرة نحو أبيها، بينما قام توم ليساعد العمال.

وبينما كان الوالد وابنته يقفان عند الحاجز، اهتزّت السفينة فزلّت قدم الصغيرة، فانقلبت وسقطت في النهر. وهمّ الوالد بأن يقفز وراءها، إلّا أنّ توم كان أسرع منه. وما إن ظهرت على سطح الماء حتّى أمسك بها، وراح يسبح محاذيًا السفينة، حيث امتدّت مئات الأيدي لتساعد في انتشال الطفلة.

في اليوم التالي وصلت السفينة إلى أورليان الجديدة. ولعلّ الحادثة قد ساعدت إيڤانجيلين في إقناع والدها بشراء توم، فاشتراه. واتّجه سانت كلير، ومعه ابنته إلى حيث تعوّد توم أن يقبع في مقدّمة السفينة، قال سانت كلير مازحًا:

ـ «اُنظر، يا توم، إن كان سيّدك الجديد يناسبك!»

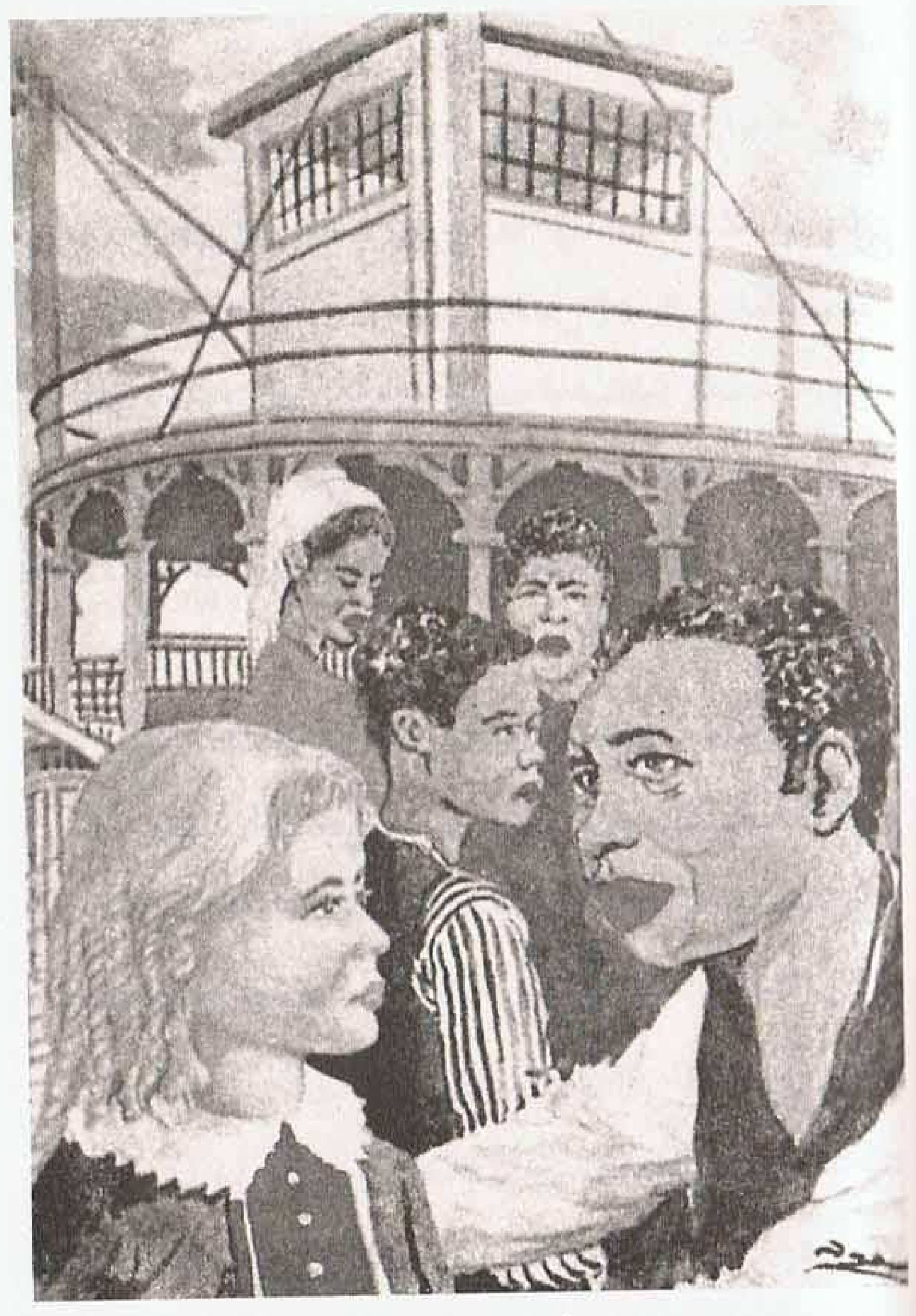
واغرورقت عينا توم بالدمع. وقال:

«بارك اللّه فيك، يا سيّدي!»

ـ «وهل تعرف كيف تقود الجياد؟»

ـ «إنّني متعوّد على الخيل، فعند السيّد شلبي خيول كثيرة!»

ـ «إذًا ستكون حوذيًا!»



إيڤانجلين والعمّ توم...

12 ـ السادة الجدد

كان أوغسطين سانت كلير ابنًا لأحد الزُرّاع الأثرياء في لويزيانا. ولكنّ أصل الأسرة من كندا. وقد نشأ حسّاسًا، متعلّقًا بالمثاليّات. وعندما شبّ، تعلّق بفتاة من الشمال وخطبها. غير أنّ أهلها حالوا بينها وبينه، فأصيب أوغسطين بصدمة عنيفة، دفعته إلى العكوف على الملذّات. وانتهى به الأمر إلى الاقتران بفتاة لا تملك سوى وجه جميل وعينين سوداوين رائعتين ومئة ألف دولار!

وبقدر ما كان أوغسطين سانت كلير ذكيًّا وحسّاسًا، كانت زوجتُهُ ضيّقةَ الأفق متبلّدةَ الشعور. وإلى جانب هذا، كانت تتميّز بأنانية لا حدودَ لها. وقد نشأت، مدلّلة بَطِرَةً في حضنِ أب لم يكن يرفض لها طلبًا، بوَصْفها وحيدتَهُ...

وما إن وضعت ابنتَها إيڤانجيلين، التي أصبحت مِحْوَرَ الأمل لوالدها، حتّى تولاها الذبول والشحوب، وأصبحت فريسةً لمجموعةٍ من الأوجاع الوهمية، فكانت تلازم سريرها يومًا كلّ ثلاثة أيّام بدعوى الصُداع الذي لا يتركها، كما تزعم.

وكانت تفرض على أمَتها الخاصّة، مامّي، أن تظلّ ساهرةً طَوالَ الليلِ لتخِفّ إليها إذا دعتها إلى جانبها.

ولـمّا كانت لا تفكّر إلّا في صداعها وأوجاعها، فقد أهملت المنزلَ وتركته للخدم، فدبّت فيه الفوضى، إلى درجة أنّ سانت كلير شعر بأنّ الحياة فيه قد أصبحت لا تطاق. فاصطحَبَ ابنته إلى فرمونت، وعاد بابنة عمّه الآنسة أوفيليا سانت كلير، لتتولّى الإشراف على المنزل، ما دامت زوجته عاجزة عن ذلك.

والآنسة أوفيليا، التي كانت تبلغ الخامسة والأربعينَ من العُمر، نشأت في منزلٍ كلّ ما فيه يسيرُ في دقّةٍ تامّة. وقد تأصّلت هذه التربيةُ في نفسها. كانت قوية الإرادة، لا تعرف التردُّد وكان كلامُها قليلاً، ولكنّها، إذا تحدّثت، فإنّما يصدر كلامُها عن عقل وعن رَوِيَّة. كذلك كان يسيطر عليها الشعور بالواجب، فهي تقوم بواجبها مهما كانت النتائج.

عندما وصل سانت كلير وابنتُهُ وابنةُ عمِّهِ كان في استقبالهم مجموعةٌ من العبيد والإماء، صغارًا وكبارًا. وكان على رأسهم

أدولف، الذي كان يسطو على ملابس سيِّده وعطوره، فيبدو أنيقَ الشكلِ تفوحُ منه رائحةُ العطر.

وجرت إيڤانـجيلين نحو أمِّها تـحتضنها وتزرَعُ وجهَها بالقُبَل. غير أنَّ الأم قبَّلَتْها بضعف، وطلبت إليها أن تترفّق بها حتّى لا تَهِيجَ صُداعَها.

واحتشد العبيد على الباب، وكانت بينهم مامّي، التي جرت نحو إيڤا، فاحتضنَتْها وراحت تقبِّلُها وتبكي.

وكان توم يقف منعزلاً، في حين كان أدولف يستند إلى أحد الأعمدة بإهمال، وينظر إلى توم عبر نظّارة أوبرا بتصنُّع يحسده عليه أيُّ شابّ مستهتر. وصاح به سانت كلير:

«أهكذا تستقبل رفيقَكَ، أيُّها التافه؟ إعلم أنَّه يساوي اثنين من أمثالك! خذه إلى المطبخ، بعد أن أقدِّمَهُ إلى السيِّدة، وإيّاك أن تلجأ معه إلى هذا الأسلوب!»

بعد فترة وجيزة كانت الأسرةُ مجتمعةً حول المائدة. فقال سانت كلير، بأسلوبه الفَكِهِ لزوجته:

«الآن، أيَّتُها العزيزة، يبزُغُ فجر أيّامك الذهبيَّة. إنَّ ابنة عمّنا امرأة عملية، لهذا ستُرِيحُ كاهِلَكِ من أعباء المتاعب وتتيحُ لك الوقت لتلتفتي إلى نفسك، وتستعيدي الشبابَ والجمال.»

ورحَّبت السيِّدة ماري بابنة عمّ زوجها، ثمّ انتقلت إلى الشكوى من فوضى العبيد وتحكُّمهم، وأنانية مامّي، التي تنام، بينما هي ـ السيِّدة ماري ـ تكابد ألم الصداع...

وبينما كانت السيِّدة ماري تتحدَّث عن أوجاعها ومتاعبها، كانت ضحِكاتٌ مرِحَةٌ تتعالى من الفناء في الخارج: كان توم يجلس على مقعد صغير من الطحالب، وإيڤانجيلين منهمكة في إحاطة عنقه بعقد من الورد، بعد أن زيّنت كلَّ عُرْوَةٍ في ثوبه بزهرة ياسمين. وبعد أن انتهت من هذه العملية التجميليَّة التي كان توم مستسلمًا لها بسعادة جلست على ركبتيه كعصفورٍ أليف.

13 ـ رجل حرّ يدافع عن نفسه

لِنَعُدِ الآن إلى منزل الكويكريّين. فقد كان المساء يقترب وكانت راشيل هاليداي تُعِدُّ بعضَ المؤن للمسافرين. وفي

الحجرة التي خصِّصت لجورج وإليزا، كان الزوجان يجلسان وقد بدت على وجهيهما آثار الدموع. كان جورج يُجلس ابنه على حجره ويمسك بيد زوجته، وهو يتحدَّث إليها عن الغد.

في هذه اللحظة قُرع الباب، ففتحت إليزا. كان هناك سيميون ومعه رجل آخر من جماعة الكويكرز يدعى فينياس فيتشر.

وقد روى فينياس أنَّه استمع في الليلة الماضية إلى حديثٍ بين عدد من الرجال، بينما كان مستلقيًا على بعض الأكياس في نُزُلٍ منعزلٍ. كان الرجال، الذين لم يلاحظوا وجود فينياس، يتحدَّثون عن الهاربين، ويقولون إنَّهم متأكّدون من وجودهم في منزل الكويكريّين. وقد وضعوا خطّة للقبض عليهم، والتصرُّف بهم.

بعد لحظات وقفت عربةٌ أمامَ الباب. وودّع المسافرون راشيل وسيميون بعبارات مؤثّرة، ثمّ جلست إليزا وطفلها والزنجيّة العجوزُ داخل العربة، في حين جلس جيم وجورج على مقعد خشبي أمامهم، أمّا فينياس فقد اتّخذ مقعدَ الحُوذِيّ.

وانطلقت العربة عَبْرَ طرُقٍ تشقُّ الغابات مرّة، والسهولَ مرّة أخرى، وتقطع الروابي مرّةً ثالثة. ونام الطفل على صدر أمّه، وما لبثت الأمّ والزنجيَّةُ أن غرقتا في النوم.

وفي نحو الثالثة صباحًا سمعوا وراءهم خطى جواد يعدو. كان الفارسُ هو ميخائيل كروس، الذي ما لبث أن لحق بهم، فأخبرهم بأنّ ثمانيةً أو عشرةً من الرجال ينطلقون في أثرهم، وقد ألهبتِ الخمرةُ رؤوسَهم، حتّى باتوا كالذئاب الكاسرة. واستحثّ فينياس الجيادَ، ليصل إلى كتلة هائلة من الصخور الوعرة كان يعرفها جيّدًا.

وما إن وصلوا حتّى نزلوا وراحوا يَجرون بين الصخور، في حين انطلق ميخائيل قاصدًا منزلَ الصديق أمورا ليأتي بنجدة. كان فينياس يحمل الصبيّ ويقفز من صخرة إلى صخرة كالعنزة، ووراءه يجري جيم حاملاً أمّه على ظهره، وفي مؤخّرة القافلةِ جورج وإليزا.

ووصل الفرسان إلى حدود الكتلة الصخريَّة، فترجَّلوا وهم يصيحون ويطلقون الشتائم. وكان الهاربون قد أصبحوا في

القمّة. وفجأة وجدوا أنفسهم أمام شقّ عرضُهُ نحو ثلاثة أقدام وعمقُهُ يبلغ الثلاثين. وسرعان ما قفز فينياس بالطفل من فوق الهُوّة، وتبعه الآخرون، الواحدُ تِلْوَ الآخر. ولـمّا أصبحوا في الطرف الثاني، توارَوْا وراء الصخور عن عيون الـمطارِدين.

وانخرط هؤلاء بين الصخور، وكانوا يتألّفون من اثنين من محترفي مطاردة العبيد الهاربين، هما توم لوكر وماركس، اللذان استأجرهما هالي للقبض على إليزا وابنها، ومن شرطيَّيْن، ثمّ من مجموعة من الأشقياء الذين استؤجروا ببضع كؤوس من الـخمرة.

وما لبث الـمطارِدون أن توقّفوا ليتداولوا أمرهم بينهم. عندها ظهر لهم جورج بين الصخور وقال لهم:

«من أنتم، أيّها السادة، وما تريدون؟»

فأجابه لوكر قائلاً:

«لقد جئنا لنعيدَ قطيعًا من العبيد الآبقين، ومعنا شرطيّان، ونحن نحمل أمرًا رسميًّا بالقبض عليهم.. وسنقبض عليهم! هل أنت جورج هاريس، الـمملوك للسيّد هاريس بكنتاكي؟»

ـ «نعم! أنا جورج هاريس! إنّ سيّدًا، يدعى هاريس يقول إنّني مِلْكُه.. ولكنّني الآنَ رجلٌ حرٌّ، وامرأتي وولدي هما لـي، أنا! ومعنا جيم وأمه.. إنّنا مسلَّحون، وقد وَطَّنّا العزمَ على أن ندافع عن أنفسنا! إنَّ أولَ رَجُلٍ يَظْهَرُ على مرمى رصاصنا مقضِيٌّ عليه بالـموت!»

وقال ماركس لرفاقه، وهو يَحْشُو مسدَّسَه:

«أنتـم تعرِفُونَ أنَّنا سنأخذ نَصِيبَنا، سواء أتينا به حيًّا أو ميّتًا!»

ثمّ أطلق رصاصة مرّت في شعر جورج، ولامست خدّ زوجته، واستقرّت أخيرًا في جذع شجرة هناك. وقفز جورج إلى الوراء. قال فينياس:

«إنَّ هؤلاء جماعةٌ من الأشقياء، فيحسُنُ بك أن تتحصَّنَ بدل أن تلقي الـخطب!»

وصمت الأعداء لـحظة بعد الرصاصة الأولى. غير أنّ توم لوكر ما لبث أن انطلق وهو يقول:

«إنّني لـم أخشَ العبيد قَطُّ، فلن أبدأ بذلك اليوم!»

وانطلق الباقون على أعقابه.

وكان جورج قد صوَّب مسدسَه نحو الشّقّ الصخريّ. وما إن ظهر توم لوكر، بجسده الضخم، حتّى انطلقت رصاصة من مسدس جورج، استقرّت في خاصرة المهاجم، الذي خار كالثور الهائج، وهو يقفز من فوق الهوّة، ثمّ يقع على الصخر، فبرز له فينياس وصدّه بذراعيه الطويلتين، قائلاً:

«لسنا في حاجة إليك هنا، أيُّها الصديق!»

فسقط في الهوّة وراح يتدحرج بين الأشجار والأدغال، حتى استقرّ في القاع، وهو يئنّ. ولولا اصطدامه بهذه العوائق لقُتل في الحال.

وصاح ماركس:

«يا لهم من شياطين! أيُّها الرفاق دوروا الدورة لإسعاف لوكر، وسأذهب، أنا، لآتيكم بنجدة!»

فراح الرفاق السكارى يسخرون منه. ولكنّه لم يأبه لذلك بل أخذ فرسه، وانطلق ناجيًا بنفسه.

جورج يستعدّ لإطلاق النار...

ونزل الرجال إلى أسفل الهوّة، وحملوا توم لوكر إلى مكان الخيول، وحاولوا وضعه على فرسه، ولكنّه كان يقع. وبعد عدّة محاولات، تركوه، فوقع وارتطم بالأرض بشدّة فانطلقوا مبتعدين.

ولـمّا غابوا عن الأنظار، هبط فينياس إلى مكان ميخائيل والعربة، وما إن اقترب حتّى صاح بفرح:

«لقد أصبحنا في مأمن! هذا ميخائيل وستيفن وأماريا!» عندها قالت إليزا:

«إذًا، لنتوقّف قليلاً، كيما نبذل العناية اللازمة لهذا الجريح المسكين، الذي يتوجّع!»

وحملوا الجريح إلى العربة، وساروا إلى منزل أماريا.

14 ـ تجارب وآراء الآنسة أوفيليا

كان سانت كلير لا يكترث للمال. وحتّى مجيء توم كانت شؤون التموين يتولّاها أدولف، الذي لا يقلّ عن سيّده، تهوّرًا وتبذيرًا واستخفافًا بالمال. ولـمّا رأى توم، وهو من نشأ في منزل

آل شلبي على النظام والترتيب والحرص على كلّ ما يخصّ سيّده، لـمّا رأى هذه الفوضى وهذا التبذير شعر بكثير من الضيق، ونظر إلى الأمر بجدّيّة، حتّى إنّه سمح لنفسه بتوجيه بعض عبارات اللوم البريئة إلى سانت كلير.

وكان سانت كلير لا يكلّف توم ببعض المهامّ إلّا عند الضرورة. ولكنّه حين لاحظ ما يتمتّع به توم من تعقّل وحسن تدبير، بدأ يزداد وثوقًا به، واعتمادًا عليه، حتّى جعله وكيلاً له. وكان شعور توم نحو سيّده، الشابّ الوسيم، مزيجًا من الاحترام والإخلاص والعطف الأبوي، ولكم كان يحزّ في نفسه أن يرى سيّده يلازم النوادي ويعاقر الخمرة، ولا يذهب إلى الكنيسة يومَ الأحد.

وذات ليلةٍ عاد سانت كلير من إحدى المآدب، وهو لا يكاد يمسك نفسه من السكر. فحمله أدولف وتوم إلى سريره. واستولى على توم من ذلك حزن شديد، ممّا أضحك أدولف وجعله يسخر من بساطة زميله. وظلّ توم قائمًا طوالَ الليل يصلّي طالبًا لسيّده الهداية، وفي الصباح سأله سيّده:

«ما بك، يا توم؟ لماذا لم تَنَمْ في الليلة الماضية؟»

فأجابه توم والدموع تنحدر من عينيه:

«إنّني أرى السيّد بَرًّا بكلّ من حوله، يعطف عليهم، ويفرغ عليهم حنانه، ولكنّه لا يرحَمُ نفسه!»

قال سانت كلير، وقد امتلأت عيناه بالدموع من التأثّر:

«يا لك من أحمق! إنّني لا أستحق أن يبكي أحد من أجلي! هيّا، كَفْكِفْ دموعك!.. وأُقْسِمُ لك أنّك لن تراني بعد الآن في مثل الحال التي رأيتني عليها الليلة الماضية!»

أمّا الآنسة أوفيليا، فمنذ اليوم الأوّل نهضت في الساعة الرابعة صباحًا، وبدأت تنظّف حجرتها وترتّبها، ممّا أدهش المرأة المولجة بحُجر النوم. بعد ذلك مضت تفتّش الغرف والخزائن، فاكتشفت الأعاجيب، وقد خافت الإماء، وصرن يتهامسن منددات بأساليب سيّدات الشمال، من أمثال الآنسة أوفيليا. أمّا دينا العجوز فقد غضبت غضبًا شديدًا بسبب هذا الاعتداء على سلطتها. ودينا هذه وُلدت طاهية كالعمّة كلو سواء بسواء.. ولكنّ كلو كانت تقبل التوجيه وتأتمر بالأوامر التي تصدر إليها، بعكس دينا العنيدة.

ولم يكن أمام السيّد سانت كلير سوى الرضوخ. لهذا أصبحت دينا تتمتّع بسلطة مطلقة. وعندما رأت حركة التعديل، التي تجريها الآنسة أوفيليا في نظام المنزل بصفة عامّة، قرّرت أن تقف في وجه هذا التغيير.

ولو أنّ الآنسة أوفيليا لقيت التعاون الكامل من قبل العبيد لاستطاعت، في بضعة أيّام، أن تسيّر الأمور بدقّة الساعة. ولكنّ هذا لم يتمّ كما شاءت، قالت لابن عمّها ذات يوم:

«إنّه لمن المستحيل تنظيم خدمك هؤلاء! فأنا لم أرَ في حياتي مثل هذا الطيش والتبذير، ومثل هذه الفوضى! إنّك لا تدري في أي حالة رأيتُ المنزل!»

ـ «أتعتقدين أنّني لا أعرف ماذا تفعل دينا؟ ولكنّها تصنع لي وجبات ممتازةً وقهوةً لذيذة.. عليكِ أن تحكمي على دينا كما يُحكم على القادة ورجال الدولة، أي من النجاح الذي يحرزونه!»

وذات مساء كانت الآنسة أوفيليا في المطبخ عندما دخلت امرأة سوداء طويلة القامة، بارزة العظام، وعلى رأسها سلّة فيها

بسكويت وخبز صغير. وضعت المرأة سلّتها على الأرض وصاحت بصوت خشن:

«لَكَمْ أتمنّى أن أموت، لأتخلّص من عذابي!»

قالت وصيفة خلاسيّة جميلة، وهي تحدث صوتًا بحلقاتها المرجانيَّة:

«لماذا تسكرين، أيّتها الأم برو؟»

فرمقتها بنظرة كئيبة قاسية:

«تعالي مكاني، وسترى إن كنت لا تشربين لتنسَيْ ما أنت فيه! إنَّ السيِّد يضربني ضربًا مبرِّحًا، إن توقّفت في الطريق لأشرب جرعة، أو لم أحمل إليه حسابه كاملاً!»

قالت الخلاسيّة وهي تلعب بحلقتيها المتدلّيتين:

«إنّك تستحقّين هذا ما دمت تأخذين ماله لتشربي به الخمر!»

وقبل أن تخرج الزنجيّة العجوز نظرت إلى الخلاسيّة بجفاء، وغمغمت في سخرية لاذعة.

ولحق توم، الذي سمع الحديث، بالعجوز وقال لها:

«دعيني أحمل عنك السلّة بعض الطريق!»

- «لماذا؟ إنَّ أحدًا لم يعطف عليّ منذ أن توفي زوجي المسكين!»

- «لمَ تركت عادة شرب الخمر البشعة تتمكّن منك؟»

- «كان لي طفل جميل. لم يكن يصرخ أبدًا، وكانت سيّدتي تحبّه كثيرًا، ولكنّها مرضت، فأخذت أعتني بها، ففقدت حليبي. ورفضت السيِّدة أن تشتري حليبًا للطفل مدّعية أنَّ في الإمكان تغذيته مثل الكبار. وصار ابني يبكي ليلاً ونهارًا حتّى لم يبقَ فيه سوى الجلد والعظم. وأجبرتني أن أبيت في غرفتها بينما كان ابني في حجرة المؤن. وذات ليلة ظلّ يبكي طوال الليل إلى أن قضى نَحْبَهُ. بعد هذا أخذت أشرب الخمرة، حتّى لا أظلّ أسمع صراخه.»

وعاد توم إلى المنزل مقطّبَ الجبين، بالغَ التأثّر، لَقِيَتْهُ إيفا الصغيرة في الفِناء، ولمّا رأته على هذه الحال سألَتْهُ:

«ما لك تبدو حزينًا، يا عمّ توم؟ رأيتك تتحدَّث إلى برو المسكينة، ما بالها؟»

فأعاد على مسمعها ما قصّته عليه برو. وبدلاً من أن تبكي، كما يفعل الأطفال، شَحُبَ لونها، وغامت عيناها، ورفعت يدها إلى صدرها، وزفرت زفرةً عميقة.

بعد بضعة أيّام جاءت بالبسكويت امرأة غير برو. فلمّا سئلت عنها، قالت إنّها لن تعود مرّة أخرى. وخفضت صوتها ورجتهم ألّا يعيدوا ما ستقوله أمام أحد. ثمّ روت لهم كيف أنّ أسياد برو أنزلوها إلى القبو، بعد أن سكرت، وتركوها هناك، وجاؤوا، بعد ذلك، يقولون إنّها ماتت.

وسمعت الآنسة أوفيليا القصّة فهالها الأمر، وتوجّهت إلى حجرة ابن عمّها، الذي كان يقرأ صحيفته، وقالت:

«إنّ هذا لشيءٌ رهيبٌ. لقد جلدوا برو إلى أن ماتت!»

- «كنت أتوقّع أن يَحْدثَ هذا في يوم من الأيّام.»

- «كيف كنت تتوقّعه، ولم تفعل شيئًا يَحُول دون وقوعِهِ؟ إنّه لعمل شنيع يا أوغسطين!»

- «بكلّ أسف أقول لك، يا ابنة عمّي، إنّ تدخُّلي ما كان ليغيِّرَ من الأمرِ شيئًا. فليس هناك أيُّ قانونٍ رادع في مثل هذه

الحال. وأنا لستُ قادرًا على شراء جميع التعساء الذين أراهم. كلُّ ما أستطيعه هو ألّا أسيرَ على هذه الطريق.»

ومضى سانت كلير يَرْوي لابنة عمّه ملخّصًا لقصّته مع الرقيق. فقال إنّ عبيدَه وإماءَه كانوا مِلْكًا لأبيه وأمّه. ثمّ انتقلوا إليه بالوراثة، هم وذريّتهم، التي تتكاثر يومًا بعد يوم. وقال إنّ والده كان طيّبًا وذا إرادة حديديّة، ومع ذلك، فلقد جاء من إنكلترا الجديدة إلى لويزيانا ليدير أمر هؤلاء العبيد ويحملهم على العمل من أجله. أمّا والدها فقد آثر البقاء في إنكلترا الجديدة حيث راح يعمل بين الصخور ليُخضع الطبيعة ويسخّرها في خدمته.

ووصف أُمّهُ بأنّها كانت مثال الطيبة والإنسانية والخُلق الرّضيّ. أمّا شقيقه، وهو توأمه، فقد كان وإيّاه على طَرَفَيْ نقيض، سواء من حيث الشكل أو الأخلاق.. وقال إنّ أخاه، بقدر ما كان كريمًا مع أقرانه، كان صَلِفًا متحكّمًا بالنسبة إلى من هم دونه، لا يرحم من يحاول أن يعانده. ولقد كان هو المفضّل عند أبيه، لأنّه على صورته. أمّا أوغسطين فقد كان أقرب إلى أمّه، لأنّ أمّه كانت تفهمه. لكنّ والده وشقيقه لم يستطيعا أن يفهما رهافة الشعور التي تميّزَ بها.

ولـم تكن مسألة الرِّقّ مطروحةً في ذلك الوقت. فما كان أحد يرى ضَيْرًا في وجود العبيد. وكان الوالد رجلاً أرستقراطيًا بمعنى أنّ اهتمامه وعطفه ينحصران في طبقته. أمّا البشر الآخرون فلا وجود لهم في نظره. وكان يعتبر الزنوجَ صنفًا وسطًا بين الإنسان والحيوان، ففي عرفه أنّ اللون حدٌّ فاصل بين الكائنات البشرية وبين من هم دون البشر. واستطرد أوغسطين يقول:

«كان والدي يسخّر خمسمئة زنجيّ. وكان، فيما يختصّ بالأعمال، دقيقًا صارمًا. ولـمّا كانت هذه الأعمال تتمّ على أيدي مجموعة من الكسالى الطائشين، فبوسعك أن تتخيّلي المآسي التي كانت تحدث.»

«وكنت، أنا، صغيرًا في ذلك الوقت. ولكنّني كنت أحبّ كلّ ما هو إنسانيّ، ففي كثير من الأحيان كانوا يعثرون عليّ قابعًا في كوخ أحد الزنوج، أو مختلطًا بالعمّال في الحقول. كنت صديق العبيد. لهذا كانت الشكاوى تُقدَّم إليّ، فأنقلها إلى والدتي لنتداولها معًا ونصلح ما يمكن إصلاحه. ولكنّني كنت متحمّسًا أكثرَ ممّا ينبغي. فما كان من وكيل المزرعة إلّا أن رفع

الأمر إلى والدي، الذي وقف كالصخر بيننا وبين عبيد الحقول.»

«فيئست والدتي وكفّتْ عن التدخُّل، واكتفتْ بأن تزرعَ في وَلَدَيْها الأخلاق الحميدةَ والعواطفَ الإنسانيّة. إلّا أنّ هذا التوجّهَ لم يؤثِّرْ في شقيقي، الذي وُلِدَ أرستقراطيًا وظلّ كذلك حتّى الآن. أمّا أنا فلو أنّني ظللتُ مع والدتي، لَجَعَلَتْ منّي مصلحًا، بل قدّيسًا.. ولكن، لسوء حظّي، فُصلتُ عنها وأنا في الثالثةَ عشرةَ من عمري، ولم أرَها فيما بعد.»

«ثمّ توفي والدي تاركًا لنا ممتلكاتِهِ نقتسِمُها، أنا وأخي، فيما بيننا. فجعَلْنا نستغلُّها معًا، في بادئ الأمر. إلّا أنّ عامين من التجربة أثبتا لي أنّه من غير الممكن أن أصبر على مثل تلك الحياة، التي كانت تناسب أخي تمامًا. فلقد كان يسحق نفسي أن أرى كيف يُباع ويُشتَرَى أولئك المساكين، وكيف يُسَخَّرون كالأنعام، وأن أرى المراقبين والمشرفين لا يلجأون إلى غير السوط في توجيههم.»

«وأيقن أخي أنّني لا أصلح لأن أكونَ إقطاعيًا، لأنّني، وأنا الكسولُ بطبيعتي، أتعاطفُ مع أولئك الكسالى، الذين هم على



مأساة الزنوج في عيني فتاة...

شاكلتي، وأرفض أن يُساقُوا بالسَّوط. فعرض عليَّ أن آخُذَ المصرِفَ ومنزلَ الأسرة في أورليان الجديدة، وأنظم الشعر كما أشاء، ويبقى هو في المزرعة. وهكذا انفصلنا وجئت إلى هنا.»

قالت الآنسة أوفيليا:

«ولـمَ لا تُعْتِقُ عبيدك؟»

ـ «لم أجرُؤ على ذلك. كما أنَّني لم أرَ من المناسب أن أؤجّرهم وأكسبَ المال من كدّهم، وآثرت أن يبقوا إلى جانبي، فأصرف مالي عليّ وعليهم، لأنَّني متعلّق بهم، وهم، بدورهم، سعداء بذلك.»

في هذا الوقت كان صاحبنا توم في حجرته الصغيرة يحاول أن يتذكَّر المعلوماتِ الأوّليّةَ، التي أعطاه إيّاها سيِّده الصغير جورج، ليكتب خطابًا إلى زوجته. وكانت إيڤا تساعده، على قَدْر ما تَعْلَم.. وفرح الاثنان أيَّما فرح عندما انتهيا من كتابة تُحفتهما الفنّية. ولـمّا دخل عليهما سانت كلير، ورأى الرسالة، ضحك، ووعد توم أن يتولّى، هو بنفسه، كتابةَ هذه الرسالة. وبالفعل كتبها في اليومِ ذاتِهِ، ووضعها في صندوق البريد.

15 ـ كنتاكي

لعلّ القارئ يحبّ أن يعرف ماذا يجري في مزرعة آل شلبي، حيث يقوم كوخ العمّ توم.

الوقت بعد الظهيرة، أبواب البهو ونوافذه مفتوحة لتتيحَ للأنسام أن تَسْرِيَ فيه، وتلطّف جوّه، في ذلك اليوم الصيفيّ. وكان السيِّد شلبي يدخِّن غليونَهُ بعد الغداء. أمّا السيِّدة شلبي، فقد جلست عند الباب تطرِّز. قالت لزوجها:

«أتعرف أنَّ كلو قد تلقّت رسالة من زوجها؟ يبدو أنّه يحيا حياةً سعيدة، فقد اشترتْهُ أسرةٌ كريمة. إلّا أنّه يسأل إن كان سيتوفّر لدينا المال قريبًا لشرائه مرّة أخرى.»

ـ «عندما تبدأ الأعمال تسوء فهي لا تتوقّف عند حدّ. فأنا الآن أقترضُ من هذا لأفيَ دَيْنَ ذاك!»

ـ «يمكن لك أن تلطِّف الأزمة، إذا بعت خيولك، أو بعْتَ إحدى المزارع لتفي كلَّ الديون.»

ـ «إنّكِ لا تفهمين الأعمال، أيّتها العزيزة!»

وهنا قطعت عليهما الحديث كلو، التي نادت سيِّدتها إلى الشرفة لتريها بعضَ الطيور. فلمّا وافتها السيِّدة شلبي، قالت لها كلو:

«لماذا تحاران، يا سيِّدتي، في أمر جمع المال، والوسيلة تحت أيديكما؟»

ـ «ماذا تقصدين، يا كلو؟»

ـ «أقصد أنَّ هناك من يؤجّرون عبيدهم، ويكسبون من ورائهم.»

ـ «من تقترحين تأجيره؟»

ـ «أنا لا أقترح! ولكنّ صموئيل يقول إنّ من يحسن صنع الحلويات يحصل على أربعة دولارات أسبوعيًّا في لويزڤيل.. فلو سَمَحْتِ لي، يا سيِّدتي، بالذهاب إلى لويزڤيل...»

ـ «ولكنّ لويزڤيل بعيدةٌ من هنا!»

ـ «هذا شيء لا يهمُّني!»

ـ «ليكُنْ.. إنَّ كل ما تجمعينه سيوضع جانبًا لاستعادة توم، وسأزيد فوقَهُ! متى تَنْوِينَ الرحيل؟»

ـ «يقول سام إنَّه سينقل بعض الأمهار عن طريق النهر.. فإذا تكرّمتْ سيِّدتي وكتبتْ لي إذن مرورٍ وزوّدتْني بتوصية فأنا على استعداد للرحيل مع سام صباح غد.»

ـ «ليس لديَّ أيُّ مانع، ما دام السيِّد شلبي لا يعارض أمر ذهابك!»

16 ـ الزهرة تذوي

مرّ عامانِ على توم. وهو بعيد عن الذين وهبهم قلبه وحياته. ولكَم كان يذكر أيّامه معهم، ويصعّد الزفرات. كان مصدر شقائه هو ابتعاده عن أبنائه، ورفيقة عمره، وأصدقائه، لا ظروف الحياة التي يحياها الآن. ثمّ إنّ توم، الرجلَ المؤمن الورع، تعلّم من الكتاب المقدّس أن يَقْنَعَ بالمصير الذي قُدِّر له مهما كان.

لقد تلقّى ردًّا، من الفتى جورج شلبي، على الرسالة، التي أرسلها إلى زوجته. في هذا الخطاب يَحْشُدُ جورج طائفةً كبيرةً من الأخبار العائليّة. من هذه الأخبار أنّ كلو مؤجَّرةٌ في لويزڤيل، لتساعدَ في جمع المال اللاّزم لاسترداده.

وكانت الصداقةُ بينه وبين إيڤا تَكْبُرُ يومًا بعدَ يومٍ، كما تَكْبُرُ إيڤا نفسُها. كانت أكبر سعادة له هي أن يُرْضِيَ نزواتِها المحبَّبة. فإذا ذهب إلى السوق انتقى لها أجملَ باقةٍ من الزهر وأكبرَ دُرّاقةٍ أو ليمونة. ولكم كانت نفسُهُ تمتلئ بالفرحة، لدى عودته، عندما يرى الرأسَ الجميلَ المذهَّب، كأنَّه كتلةٌ من أشعّةِ الشمس، ينتظرُهُ عند الباب ليُلْقِيَ عليه سؤاله الدائم:

«ماذا حملْتَ إليَّ اليومَ، أيُّها الأب توم؟»

وفي عصر يوم من الأيّام كانا يجلسان في البستان، والكتابُ المقدسُ في حجر إيڤا، تقرأ له فيه. وتوقّفت الصبية عن القراءة، وطلبت من العمّ توم أن يرتِّل لها النشيدَ الذي يمجِّد الملائكة، اللابسينَ أردية النور والحاملين في أيديهم سَعَفَ الانتصار. ولمّا انتهى من إنشاده، قالت:

«أيّها الأب توم، إنّني ذاهبةٌ إلى هناك.. حيثُ الأرواحُ المشعَّة! ذاهبةٌ في وقت قريب!»

لقد صدمت هذه الكلمات ذلك القلبَ العجوزَ الوفيّ، وذكر توم أنّه لاحظ مرّاتٍ ومرّاتٍ، خلالَ الأشهر الستّة

الماضية، كيف أن يدَيْ إيڤا الصغيرتين كانتا تَنْحُلان، وكيف أنَّ جلدها يزداد شُفُوفًا، وتنفُّسها يزداد ضيقًا. وذكر كم كانت تتعب وتلهث إذا لعبت أو جرت في الحديقة. وقطع حديثهما نداء الآنسة أوفيليا:

«إيڤا، لقد بدأ النَّدَى يتساقط.. تعالي، يا صغيرتي!»

كانت الآنسة أوفيليا يَقِظَةً، ولها بعض الخبرة في الأمراض. وقد لاحظت على إيڤا أُولى التطوّرات الرهيبة لذلك الداء الخبيث، الذي كان يفتكُ بألوف الناس. كما لاحظت لديها ذلك السعالَ الخفيفَ الجافّ، وتلك الحُمرةَ في الخدَّين، ولم يخدَعْها التماعُ العينين ولا نضارة الوجه.

ولقد أشركت الآنسة أوفيليا ابنَ عمّها سانت كلير في ما كان يساورُها من مخاوفَ. إلّا أنَّ سانت كلير نفى أن تكون مخاوفُها قائمةً على أساس. ولكنّه بدأ يقلق ويراقب ابنتَهُ باستمرار.

في تلك الفترةِ، زاره شقيقُهُ ألفرد دي سانت كلير، ومعه ابنُهُ هنريك البالغُ من العمر الثانيةَ عشرةَ، ليقضيا عدّة أيّام، في منزله الريفيّ الواقعِ على بُحيرة بونشارترين.

كان كلُّ شيء في الأخوَيْن متناقضًا، ولم يكونا، في أيِّ قضيّة، يتّفقان على رأي واحد. ومع ذلك لا يملّان الجلوس معًا، كأنَّ هذا التباينَ هو نفسُه الرابطةُ، التي كانت تشدّ الواحدَ إلى الآخر.

وكان هنريك أرستقراطيًا على غرار أبيه. وما إن وقعت عيناه على ابنة عمّه حتّى سحرَتْه برقّتها. وكان لإيڤا مهرٌ لطيف بلون الثلج. وقد جاء به توم إلى وراء الشرفة، لتذهبَ هي وابنُ عمّها إلى النزهة. وفي نفس الوقت جاء غلام خلاسيّ في الرابعةَ عشرةَ من العمر يقود، لهنريك، حصانًا عربيًّا أسود. وكان هنريك فخورًا بحصانه. وعندما أتاه، نظر إلى رأسه، وما لبث أن قطّب وجهه، وصاح بالغلام:

«لماذا، أيُّها الكلب الكسول، لم تحسّ حصاني هذا الصباح؟»

قال الغلام دودو باستكانة:

«عفوك، يا سيّدي، فقد التقط بعض الغبار!»

فصرخ قائلاً:

«اخرس، أيُّها الحقير!» ورفع السوط في وجهه. وما إن حاول الخادم أن يردَّ حتّى لسع وجهه السَّوطُ. ثمّ أمسك بذراعه وأركعه على الأرض، وانهال عليه ضربًا، حتّى كلَّت يداه.

وتقدّم منه توم وقال:

«يا سيِّدي الصغير، أنا أعلم ما كان يريد أن يقول: لقد وقع الجواد على الأرض، وهو خارج من الإسطبل، لأنّه شديد النشاط!»

ـ «اسكتْ أنت، ولا تُجِبْ إلّا متى سئلت!»

واتّجه نحو ابنة عمّه وقال لها:

«آسف، يا ابنة عمّي، لأنَّ هذا الغبيّ قد جعلك تنتظرين.. ولكن ما بالُكِ؟ يبدو أنّكِ حزينة.»

قالت:

«كيف أمكن لك أن تقسو بهذا الشكل على دودو المسكين؟»

ـ «إنّك لا تعرفينه.. إنّه كثيرُ الكذب، كثيرُ الحِيَل!»

ـ «ولكنّ الأب توم قال إنَّ المسألةَ عبارةٌ عن حادث.. وتوم لا يكذب!»

ـ «إذًا فهذا الزنجيّ العجوز فريدٌ في أبناء جنسه.. إنَّ دودو لا تُترَك له الفرصة للكلام حتّى يكذب!»

ـ «إنَّك تجعَلُ منه كاذبًا بهذه الطريقة الإرهابيّة التي تمارسها معه.. فلقد ضربْتَهُ دونَ مبرِّر!»

ـ «هذا يعوِّض عن مرّة أخرى يكون فيها مبرِّرٌ لضربه ولا يُضرب! ولكن لن أضربَهُ أمامك بعد الآن، إن كان هذا يؤذيكِ!»

ولم تقنَع إيڤا بهذا الكلام، ولكنّها رأت أنَّ من العبث أن تحاول التأثير في ابن عمّها.

بعد يومين من هذه الحادثة رحل ألفرد وابنُهُ. وبدأت صحّة إيڤا تسوء بسرعة. وفكّرَ سانت كلير في استشارة الطبيب، بعد أن كان يرفض ذلك لأنَّ الرجوعَ إلى الطبيب معناه الاعتراف بالحقيقة المرّة.

أمّا زوجته، ماري، فلم تكن تلاحظ ما حلَّ بابنتها، لأنّها مشغولةٌ بدراسة مرضَيْن جديدَيْن أو ثلاثة تتوهّم أنّها مصابة بها. وكانت مؤمنةً كلَّ الإيمان بأنّه من غير الممكن أن يكون أيُّ فرد، ممّن يعيش حولها، مريضًا مثلَها. ولكم حاولت الآنسة أوفيليا أن

تثير مخاوفها بخصوص ابنتها، فلم تُفْلحْ. ولكن لـمّا أصبح مرض إيڤا واضحًا لا شُبْهَةَ فيه، وبعد أن زار الطبيب المنزلَ، انقلبت الأمّ في مغالاتها إلى الاتجاه المعاكس، فراحت تندُبُ حظّها، وتقول إنّها كانت تحسُّ بأنّها ستكون أتعسَ الأمهات.

بعد خمسةَ عشرَ يومًا من العناية المستمرّة، طرأ تحسُّن كبير على صحّة إيڤا: لقد هادنها المرضُ اللعينُ بصورة مؤقتة. وعادت الصبيّةُ تتنزّه وتجري في الممرات، وتضحك. وكان والدُها يقول، والفرحةُ تملأ نفسه، إنّ ابنتَهُ استعادَتْ كاملَ صحّتها. ولكنّ شخصَيْن اثنين لم تخدَعْهما هذه المظاهرُ الكاذبة، ألا وهما الطبيب والآنسة أوفيليا. ثمّ هناك القلب الطاهر الصغير، قلب إيڤا: فقد كان يُحِسّ بأنّ الموتَ يدنو منه.

وذات مساء جاء والدُها فرحًا، لأنّه حمل إليها هدية. ولكنّه ما إن رآها حتّى نسي ما دعاها من أجله. ذلك أنّ شَكْلها أثارَ الرعبَ في نفسه بصورة مفاجئة. فقالت له:

«بابا إنّ لديَّ شيئًا كنت أريدُ أن أقولَهُ لك، منذ مدّة طويلة، وها أنا أقولُهُ الآن قبل أن يتولّاني الضَّعْفُ. لم تعُدْ هناك فائدةٌ من بذل العناية لي فقد حان الوقتُ الذي سأتركُكم فيه!»

قال سانت كلير بصوت يحاول أن يجعلَهُ مرِحًا لإخفاء ما تولّاه من اضطراب:

«كيف ذلك، يا حبيبتي؟ يبدو أنّكِ أصبحتِ سريعةَ التأثّر! لا تَدَعي نفسَكِ هكذا تنهارين.. أُنظري: لقد اشتريتُ لكِ تمثالاً جميلاً!»

ـ «دَعْكَ من هذا، يا بابا! أنا أشعرُ أنّني لستُ على ما يرام.. ثمّ إنّي أفضّل أن أذهب إلى السماء، لأنّ أشياءَ كثيرةً على الأرض تحزنني!»

ـ «وما هذه الأشياء، يا حبيبتي؟ إنّنا نعمل كلَّ ما من شأنه أن يُفرِحك ويسعدك!»

ـ «إنّني أتألـمُ من أجلِ عبيدنا! إنّهم يُحبّونني كلَّ الحب، ويعاملونني بِرقّةٍ وحنانٍ.. لكَم أتمنّى أن يصبحوا، كلّهم، أحرارًا!»

ـ «أليسوا سُعداء هنا، يا صغيرتي؟»

ـ «بلى! ولكن كيف ستكونُ حالُهم، إنْ حَدَثَ لَكَ شيء؟ إنّ أمثالك من الرجال قِلّة بين الناس، يا بابا! فعمّي ألفرد ليس مثلك.. وكذلك ماما! أنظر إلى أسياد برو المسكينة!»

ـ «إنَّكِ حسّاسةٌ جدًّا، يا حبيبتي! ويؤلمني أن تُرْوَى أمامك هذه الحوادث.»

ـ «أجل، يا بابا، هذا هو الذي يعذِّبني! أتريدُ منّي أن أكونَ سعيدةً، في حين أنَّ العديدَ من الناس يَقْضُونَ حياتَهُمْ في البؤس والحرمان؟ أليس من وسيلةٍ لإعادة الحرّية إلى جميع العبيد؟»

ـ «إنَّ هذا صعبٌ جدًّا، يا بنيّتي! إنَّ الرِّقَّ شيء كريه، وأنا ضدَّهُ، ولكنَّني لا أعرف طريقةً للقضاء عليه!»

ـ «إنَّكَ رجلٌ كريمُ النفس، طاهرُ السَّريرة، لا تحمل سوى المحبةِ للآخرين.. وفوق هذا تتمتّعُ بالقدرةِ الفائقة على الإقناع، أفلا تستطيعُ أن تدور على المزارع لتُقنع الأسياد بما يجبُ عليهم فعلُهُ؟ أَتَعِدُني بأن تقومَ بذلك بعدَ أن أموت؟»

ـ «تموتين.. تموتين؟.. لا تقولي هذا، يا إيڤا! ألا تعلمينَ أنّك لي كلّ شيء في هذا العالم؟»

ـ «لقد كان طفل برو المسكينة كلَّ شيء بالنسبة إليها! ولقد سمعتُه يبكي إلى أن اختنقَ ومات.. وما كان مسموحًا لها بأن تحاولَ إنقاذه! بابا، إنَّ هؤلاء الناسَ يحبّونَ أبناءَهم كما تحبُّني أنت، فهلا بذلْتَ ما تستطيعُ من أجل إنقاذهم!»

ـ «لا تبتئسي، يا ابنتي الحبيبة، ولا تتحدَّثي عن الموت، فسأفعلُ كلَّ ما تريدين منّي أن أفعلَهُ!»

ـ «إذًا عِدْني، يا أبتي الحبيب، أن تَهَبَ توم حريّتَهُ...» وتوقّفَتْ لحظة ثمّ أكملت «... فورَ انتقالي إلى العالم الآخر!»

ـ «أجل، يا حبيبتي، سأفعلُ كلَّ ما تريدين!»

وامتدَّ الظلام وهما صامتانِ، وسانت كلير يضمُّ إلى صدره الجسدَ الحبيبَ الضعيفَ.

17 ـ موت إيڤانجلين

لازمت إيڤا غرفَتَها، بعد أن اختَفَى ذلك النشاطُ الخادع، الذي ظهَرَ عليها لفترةٍ من الزمن.

وذاتَ يومٍ جاءت أمُّها لتجلس قُرْبَها. فقالت إيڤا:

«ماما، أريد أن أقصَّ شعري، لأوزِّع منه خُصَلاً على أصدقائي، ما دامتْ لي القوّةُ على ذلك.. فهلا دَعَوْتِ ابنة عمّي أوفيليا لتقصّه لي!»

ودخل سانت كلير الحجرةَ، بينما كانت الآنسة أوفيليا عائدةً ومعها المقصُّ.. قال:

«ماذا تفعلين؟»

قالت إيڤا:

«لقد رجَوْتُ ابنةَ عمّي أوفيليا أن تقصَّ لي شعري، لأنّه يضايقُني بكثافتِهِ!»

فصمت سانت كلير، والأسى والحزن ملءُ ضلوعه، بينما بدأت الخصل الذهبية تتساقطُ على حِجْرِ الصبيةِ العليلةِ خصلةً خصلةً.

ثمّ طلبت إيڤا من والدها أن يجمَعَ كافّةَ العبيد الأصدقاء. ولمّا جاؤوا ودَّعَتْهم بعبارات مؤثِّرة، وأخذت توزّع عليهم خُصَلَ شَعْرِها، بينما كانوا يَنْتَحِبُون ويقبّلون أطرافَ ثوبها. وخشيَتْ أوفيليا على إيڤا من هذا المَشْهدِ المُثير، فأخذت تُخرج كلَّ من يأخذ خُصْلةَ التذكار. ولم يبقَ سوى توم ومامّي. قالت إيڤا:

«هذه الخصلةُ الكبيرةُ لك، أيها الأب توم! إنّني سعيدةٌ بأن أراكَ في السماء! وأنتِ يا مامّي.. يا مامّي الحبيبة الحنون.. أنا أعلمُ أنّني سأراكِ أيضًا هناك!»

بعد أيام كانت إيڤا، الطفلة الملائكيّة، تودّع هذا العالمَ، والقلوبُ من حولها تَتَفَطَّرُ، ووالدُها ينسحقُ تحت وطأةِ الألم.

18 ـ لقاء

بعد أن دفنت إيڤانجيلين، لازمت أمُّها السريرَ، وهي لا تكفّ عن البكاء والنحيب، شاغلةً كافّةَ العبيد في كلّ لحظة، غيرَ تاركةٍ لهم، حتّى فرصةَ البكاء للتفريج عن صدورهم، التي تكاد تنفجر من شدَّة الصدمة.

أمّا توم فقد كان يلازمُ سيِّدَهُ، ويتبعُهُ أيْنَما اتَّجَهَ، وهو صامتٌ حزينٌ. وعندما كان يراه وقد جلس في حجرة إيڤا ناشرًا على ركبتَيْه كتابَها المقدس، دون أن يرى كلمةً من كلماته أو سطرًا من سطوره، عندما كان يرى ذلك، كان يحسّ بأنَّ هذا الألمَ الصامتَ أبلغُ وأعمقُ ألفَ مرةٍ من حزن السيِّدةِ ماري الصارخ، وشَكْواها المستمرّة.

وغادرت الأسرة منزلها الريفي وعادت إلى أورليان الجديدة، حيث كان سانت كلير يحاولُ أن يَرْدُمَ الحفرةَ

العميقة، التي أحدثتها في قلبه وفاةُ ابنتِهِ الوحيدة. كان يتلهّى بقراءة الصُّحُفِ، والتحدُّثِ في السياسة، بل وبممارسة التجارة. غير أنّ كلَّ هذه المظاهر إنّما كانت تحجُبُ قلبًا تسُودُهُ ظلمةٌ كظلمة القبر.

وما إن عاد إلى أورليان الجديدة حتّى بدأ المساعيَ الأوليَّةَ لتحرير توم، وهي مساعٍ لا بدّ لتمامها، من إنهاء الإجراءات القانونيَّة المعقَّدة. ويومًا بعد يوم كان يزيد تعلُّقه بتوم، لأنَّه الشخصُ الوحيد، الذي يستطيع أن يملأ فراغَ نفسِهِ، إذ يذكِّره بإيفا على الدوام.

قال لتوم يومًا:

«أتدري، يا توم، أنَّني في صَدَدِ تحريرك؟ فتهيَّأ إذًا، واستعِدَّ للعودة إلى كنتاكي!»

فرفع توم يديه إلى السماء، وقال، وقد شاع الفرح في وجهه وعينيه:

«المجدُ لك، يا رب!»

فلم يَرُقْ هذا لسانت كلير، وقال بجفاف:

«لم تكن هنا شقيًّا، على ما أظنّ.. فلِمَ تُبْدي كلَّ هذه السعادةِ برحيلك عنّا؟»

- «سيِّدي، لست فرحًا لأنَّني أبتعد عنك، إنَّما فرحتي لأنَّني سأصبح رجلاً حرًّا!»

- «ألا تدري أنَّ حياتك هنا أهنأ بكثير ممّا لو كنت حرًّا؟ إنَّك لا تستطيعُ بعملك أن تأكل وتكتسي، كما تُطعَم وتُكْسى هنا!»

- «طبعًا، يا سيِّدي! أنا أعلم ذلك جيِّدًا، ولقد كنت بالغَ العطف عليّ، ولكنّ منزلاً متواضعًا وملابسَ فقيرةً أمتلكها أنا أفضل عندي من سكن ولباس ليسا ملكًا لي.. أليس هذا طبيعيًّا، يا سيِّدي؟»

- «بلى، بلى!.. لهذا سترحلُ خلال شهر!»

وفي يوم آخر أرادت الآنسة أوفيليا أن تحدّث ابن عمّها في أمر عبيده.. قالت:

«ألم يخطر لك، يا أوغسطين، ما يمكن أن يحدث لعبيدك من بعدك؟ إنَّ رقّتك وتسامحك معهم سيكونان، في هذه الحال، بمثابة قسوة ما بعدها قسوة.»

فأجاب سانت كلير، الذي طالما راوده هذا الخاطر:

«سأهتمُّ بهذا الأمر في يوم من الأيّام!»

ـ «وإنْ أصابكَ مكروهٌ قبل ذلك.»

فوضع أوغسطين الصحيفة جانبًا، وحدَّق إلى ابنة عمّه وقال:

«ماذا تعنين، يا أوفيليا؟ هل ترين عليّ أعراض الحمّى الصفراء أو الكوليرا؟ لماذا تهتمّين هذا الاهتمام كيما أتّخذ ما ينبغي من إجراءات، حَذَرَ الموتِ؟»

وخرج إلى الشرفة، ثمّ اتّجه إلى آخرها، حيث كان توم يقرأ في الكتاب المقدّس مُنَقِّلاً إصبَعَهُ من كلمة إلى كلمة. قال له سانت كلير، وهو يجلس إلى جانبه:

«أتريد أن أقرأ لك؟»

ـ «إذا شاء سيّدي.. إنَّ قراءتَكَ بالغةُ الرّوعة!»

وتناول سانت كلير الكتابَ وأخذ يقرأُ مقطعًا من المقاطع التي خطَّ توم على هوامشها بَعْضَ التفاسير. وبدا وكأنَّ صوتَهُ قد ملأ نفسه بالدَّهَش. فنهض وراح يذرَعُ الشرفةَ مستغرقًا في حلم

طويل، شَغَلَهُ عن كلّ ما حوله، حتّى إنَّ توم اضطرَّ أن ينبّهه إلى أنَّ جرس الشاي قد رنَّ مرتين.

وعلى مائدة الشاي ظلَّ صامتًا، شاردَ الذهن، ومن ثمّ انتقل إلى البهو دون أن ينبس بكلمة. وهناك جلس إلى البيانو وأخذ يعزِف مقطوعة هادئة حزينة. وكان يُخَيَّلُ إلى من يسمعه ويراه أنّه كان يتحدَّث إلى نفسه بالألحان.

وبعد أن انتهى نهض وقال للآنسة أوفيليا، وكأنّه يهمس:

«لست أدري لم تُلِحُّ عليّ ذكرى والدتي هذا المساء؟»

ثمّ أخذ قبّعته وقال إنّه خارجٌ ليسمعَ ما جَدَّ من أنباء.

وقبع توم تحت الشرفة، وسرحت به الأفكار نحو أهله. وكان يجري مع أحلامه، وهو يُحدِّق إلى النافورة التي تلمع في ضوء القمر، ويستمع إلى ذلك اللحن الطويل المنبعث من تساقط قَطَرات الماء في الحوض. غدًا سيصبح حرًّا! وسيصبح في إمكانه أن يرى زوجته وأولاده. إنّه سيعمل بكلّ نشاط حتّى يتاح له أن يشتريَهُم.. بذراعيه القويّتين سيكدح! ودون شعور راح يَجُسّ ذراعيه: إنّهما ستصبحان عمّا قريب مِلكًا له لا لسواه!

وانتزعه من حلمه اللذيذ قرعٌ شديد على الباب ولَغَطٌ يختلط بصوت خطًى مضطربة. فجرى نحو الباب يفتحه. فدخل رجال يحملون على نقّالة شخصًا لُفَّ بمعطف. ولمّا أضاء المصباحُ وجهَ الشخص المُسَجَّى، أطلق توم صيحة تردّد صداها في أنحاء المنزل؛ لقد كان الجريح هو سيِّد أوغسطين دي سانت كلير! وتقدّم الرجال بحملهم نحو باب البهو، حيث كانت أوفيليا تحوك الصوف.

كان ما حدث أنّ سانت كلير دخل أحد المقاهي لقراءة صحيفة من صحف المساء. فقام شجار بين شخصين ألهبت رأسيهما كثرة الشراب. فأقبل سانت كلير وأشخاص آخرون للتفريق بين المتخاصمين. وبينما كان أوغسطين يحاول أن ينتزع خنجرًا من أحدهما أصيب بطعنة في خاصرته. وها هو عائد إلى منزله مضرّجًا بدمائه.

وما عتّم المنزل أن امتلأ بالصراخ والعويل والأنين اليائس. كان العبيد يشدّون شعورهم، ويرتمون على الأرض، أو يجرون هنا وهنا وقد أفقدهم الحزنُ الصوابَ. أمّا ماري فقد أصيبت

بتشنجات عصبية. ولم يبقَ مالكًا لعقله، رغم ألم المصاب، سوى أوفيليا وتوم.

وسُجّي أوغسطين على أريكة، وراحت أوفيليا تنشّقه بعض الأملاح لتعيد إليه وعيه، بعد أن فقده من شدّة الألم. ومن كثرة ما نزف منه من الدماء.

وفتح الجريح، آخر الأمر، عينين كليلتين، راحتا تدوران ببطء في كلّ ناحية، ثمّ استقرتا على صورة والدته.

ووصل الطبيب، ففحصه. ولكن ظهرت على وجهه أماراتُ اليأس، ومع ذلك ضمَّد الجرح بعناية، يعاونه في ذلك أوفيليا وتوم.

وكان العبيد والجواري مجتمعين عند الباب، وهم يبكون وينتحبون. وفتح أوغسطين عينيه ونظر نحوهم، وتمتم بمرارة:

«مساكين!»

وبعد فترة من الوقت حرّك يده ووضعها فوق يد توم، الذي كان جاثيًا إلى جانبه، وهمس:

«توم، مسكين أنت، يا توم!»

ولم يمض وقت طويل حتّى بَدَتْ صُفرة الموت على ذلك الوجه الذي شاع فيه الهدوء وكأنّه وجه طفل. وانتهى أوغسطين ويده البيضاء ما تزال مطمئنّةً على اليد السوداء.

19 ـ من تخلّى عنهم البشر

ما إن لفظ سانت كلير أنفاسَه الأخيرة، حتّى سيطر الرعبُ والوجومُ على المنزل الذي تتردّدُ في مختلف أنحائه الزّفَرات والصَّرَخات اليائسة. فماري ذات الأعضاء الضعيفة كانت عاجزةً عن تحمُّل مثل هذه الصدمة. فبينما كان زوجها في النّزْع الأخير، كانت، هي، لا تقوم من إغماء إلّا لتغيب في إغماء آخر.

أمّا أوفيليا، التي كانت تتميّز بالقوّة والقدرة على التحكّم في عواطفها، فقد كانت تسهر على تنظيم كلّ شيء، وفي نفسها تتردّد الصلوات، التي ما كان يكفُّ عن تلاوتها ذلك العبد المسكين، توم.

وقد أشرفت هي وتوم على جميع الترتيبات الواجبة حتّى إرقادِ الشابّ القتيل في مَثْواه الأخير.

وفي الوقت الذي كان فيه توم يؤدي الواجباتِ نحو ذلك السيِّد الذي أحبّه، كان يشعر، في قَرارةِ نفسه، بأنه لم يعد لديه أملٌ، بعد اليوم، في نيل الحرية.

بعد أيّام من غياب سانت كلير، كان يقف على الشرفة، وهو غارقٌ في تأمُّلاته. فجاء أدولف، الذي خارت قواه واستولى عليه اليأس، منذ أن مات سيِّده، وقال له:

«أتدري، يا توم، أننا سنباعُ جميعًا؟ لقد كنت أختبئ وراء الستائر عندما كانت السيِّدة تتحدّث إلى المحامي. وقد سمعتُ كلَّ شيء: إنّنا سنباع بالمزاد بعد أيام قليلة!»

وأحسّ توم بالهمّ يعتصر قلبه. لقد تبدَّت له، في تلك اللحظة، صورةُ امرأته وأولاده، والأملُ الضائع بالتحرُّر.

وذهب إلى أوفيليا التي ما زالت، منذ وفاة إيڤا، تعاملُهُ أكرَمَ معاملةٍ. قال لها:

«أيَّتها الآنسة أوفيليا! لقد وَعَدَني الراحل السيّد سانت كلير بأن يحرِّرني.. بل إنّه بدأ يتّخذ الإجراءات لذلك. فهلا تتكرّمين بالتحدُّث إلى السيِّدة ماري، لعلّها تكملُ هذه الإجراءات. تنفيذًا لرغبة زوجها!»

ـ «سأكلّمها في ذلك، وأبذل جهدي لإقناعها! إلّا أنّني لست شديدة الأمل بأن تستجيب!»

وتوجّهت أوفيليا إلى حجرة ماري، عازمة على أن تأخذها باللين. فوجدتها مُضْطَجعَةً على الأريكة، وأمامها مجموعةٌ من الأقمشة تقلّبها بين يديها، كيما تختار منها ما يليق بمناسبة الحداد. وما إن رأت أوفيليا، حتّى ابتدَرَتْها بالقول:

«ليس لديَّ ثوب أرتديه.. ولا بدّ لي من صنع ثوب جديد، لأنّني راحلة في الأسبوع المقبل. لقد تلقّيت خطابًا من شقيق سانت كلير.. إنّه يفكّر تفكير رجل أعمال.. من رأيه أن يباع الأثاث والعبيد. أمّا فيما يتعلّق بالمنزل فمن رأيه أن يؤجّل بيعه إلى فرصة مناسبة.»

وقالت لها أوفيليا:

«هناك شيء أودّ أن أحدّثك فيه: إنَّ أوغسطين كان قد وعد توم بأن يُعْتِقَهُ، بل إنّه بدأ الإجراءات الرسميّة لذلك. وفي اعتقادي أنّك لن تتأخّري عن إتمام هذه الإجراءات...»

وقاطعتها ماري بخشونة، قائلة:

«ذلك ما لن أفعله بالتأكيد! إنّ توم من أحسن عبيدنا وأغلاهم ثمنًا.. كلّا، لن أفعل هذا! ثم أيُّ حاجة به إلى الحرية؟ إنّه هكذا أحسنُ حالاً بما لا يقاس!»

ـ «ولكنّه راغبٌ في نيل حريّته! ثمّ إنّ سيِّدَهُ قد وعده بذلك.»

ـ «راغبٌ، راغب! كلُّهم راغبون في الحرية!.. إنّهم صنفٌ لا يرضى عن شيء.. ولا يطلب إلّا ما ليس تحت يده.. إنّني ضدّ التحرير! العبدُ يسيرُ جيّدًا ما دمتِ تمتلكينه.. أعتِقيهِ وسترَيْن أنّه لجأ إلى الكسل والتبطّل، وأقْبَلَ على شرب الخمرة، وأصبح عنصرًا فاسدًا. لقد رأيت مئات الأمثال رأيَ العين.»

ـ «ولكنّ توم ليس من هذا النوع.. توم المستقيم، الورع، المُجِدّ!»

ـ «أنا أعرف كلّ هذا، ولا أحتاج إلى من يشرحه لي. توم لا يختلف عن غيره. إنّه يسلُكُ مسلكًا حسنًا ما دام ملْكَ يمينك.. لقد رأيت مئاتٍ من أمثاله.»

ـ «وماذا لو أنّه وقع، في حال بيعه، بين يديّ سيّد ظالم؟»

ـ «هراء كل ما يقال حول ذلك! إنَّه لا يوجد سيِّد ظالم واحد من مئة. لقد ولدت ونشأت في الجنوب ولم أرَ في حياتي سيِّدًا واحدًا لا يعامل عبيده كما ينبغي.. من هذه الناحية أنا مطمئنّة.»

وعادت أوفيليا تقول، ولكنْ بحزم هذه المرّة:

«حسن! ولكنّي أعرف أنّ آخر رغبة عبَّر عنها زوجك هي تحرير توم. ولقد قطع بذلك عهدًا على نفسه لعزيزتنا إيفا الصغيرة، وهي على سرير الموت. ولا أعتقد أنَّك تُقْدِمين على نقض ما تعهَّدَ به زوجك!»

وما إن فاهت أوفيليا بهذا الكلام حتّى غطت ماري وجهها بمنديلها وراحت تنتحب، ثمّ تأخذ قارورة الأملاح تتنشّق ما فيها بقوّة، وهي تصيح مستغيثةً، مستجيرةً:

«الجميعُ ضدّي! لا أحد يرحمني.. وأنت؟ ما خطر لي قَطُّ أن تفعلي بي هذا، وتذكِّريني بما حلّ بي من مصائب! إنّك لا تكترثين لي! آه، ما أعظمَ مصيبتي، ابنتي الوحيدة أفقدها! زوجي العطوف، الذي يراعيني، ولا أجد رعاية من غيره، أُحْرَمُ منه! ثم تأتين لتذكِّريني بأحزاني.. أليس في قلبك أثرٌ للرحمة؟»

وتمضي في انتحابها وصياحها إلى أن تَتَقَطَّعَ منها الأنفاس، فتنادي مامّي لتفتحَ لها النوافذَ، وتأتيها بزجاجة الكافور، وترطِّبَ رأسها، وتفتحَ الثوبَ عن صدرها.

وفي غمرة هذه الفوضى، التي أحدثتها ماري، انسلّت أوفيليا إلى حُجْرتها، مُوقنَةً أن لا فائدةَ من الحديث مع هذه السيِّدة، التي ما إن تُعْوِزُها الحجّةُ حتّى تلجأ إلى النوبات العصبيَّة، وهي أمضى سلاح تفرض به رغباتها. من أجل هذا عمدت أوفيليا إلى الكتابة للسيِّدة شلبي، شارحةً لها ما يواجه توم من مصاعب، وطالبةً إليها النجدة على جناح السرعة.

إلّا أنَّ توم وأدولف ونصف دزينة من العبيد كانوا، في اليوم التالي، يُساقُونَ إلى محلّ أحد النخّاسين في انتظار بيعهم.

20 ـ دار الرقيق

عندما تسمع بذكر «محلّ تجاري» لبيع الرقيق لا بدّ أن تتجلّى أمام ناظرَيْكَ صورةٌ بشعةٌ رهيبة، وتجارٌ متوحّشونَ أجلاف. ولكنَّ هذا مغايرٌ للواقع ـ من حيث الشكل طبعًا ـ

فتجّارُ العبيد أصبحوا، في هذه الأيام، أشدَّ درايةً في السوق ومتطلّباتها. فهُم يَحْرِصُونَ على أن يكونَ مَظْهَرُ سلَعهم البشريةِ مُرَغّبًا للزبائن، بمعنى أنّهم يُسَمّنونها ويُلْبسونها الملابس الجذابة، ويُعْنَوْن بها لكي تُعرَضَ في السوق على أحسَنِ حال. وعلى هذا فإنَّ محلَّ بيعِ الأرقّاء لا يختلفُ عن أيّ بيتٍ تجاريٍّ، من حيثُ النظافةُ، والترتيبُ. ثمّ إنّ البضاعةَ البشرية، من رجالٍ ونساءٍ، تُعْرَض أمام الدار كعيّنات تدلُّ على ما في داخل الدار من عبيد وإماء. فإذا اتفق لك، ومَرَرْتَ أمام الدار، دعاك النخّاسُ أو أحدُ أعوانه، بكلّ لطف وكياسة إلى الدخول لعلّك تختار شيئًا يُعجبك. ففي الداخل تشكيلةٌ كبيرة من الأزواج والزوجات، من الإخوة والأخوات، من الآباء والأمهات، من الصبيان والبنات، للبيع بالجملة والمفرّق.. وهكذا تباع هذه الروحُ البشريةُ، أو تؤجَّرُ، أو يقايَض بها مقابلَ موادّ البقالة أو أيّ موادَّ أخرى، تبعًا لرغبة التاجر ومتطلّبات السوق.

وُجّه توم وأدولف والعبيدُ الستّةُ الآخرونَ إلى «مستودع» النخّاس السيّد سكيغز. وحُشِد الجميع، أثناء الليل، في حجرة واسعة تَعُجُّ بعبيدٍ وإماء من مختلف الأعمار والأشكال والألوان.

وكانت تَصْدُرُ عن الجميعِ ضجّةٌ تُصدّعُ الرؤوسَ وقهقهاتٌ منفرّة بلهاء.

وغنيٌّ عن البيان أنّ توم لم يكن في حالة نفسية تمكّنه من المشاركة في هذا العبث. وكان يحملُ حقيبةً كبيرةً تضمّ كلَّ متاعِهِ، فوضعها بعيدًا عن المجموعة الصاخبة، وجلس عليها مُسْنِدًا جَبْهَتَهُ إلى الجدار.

من عادة النخّاسينَ أن يَعْمَلوا على أن يَسُودَ عبيدَهم جوّ من المرح الصاخب، حتّى لا يتركوا لهم وقتًا للتفكير في بؤسهم، بل ليُجرِّدُوهم من كلّ إحساس بما تمتلئ به نفوسهم من الآلام. والهدفُ الذي يضعُهُ النخّاسُ نُصْبَ عينيه، منذ أن يشتريَ العبدَ من الشمال ليصرِّفَهُ في أسواق الجنوب، هو أن يَبُثَّ فيه القسوةَ، واللامبالاةَ والقدرةَ على تحمُّل المشاقّ. وبعد أن يستكملَ هذا التاجرُ شحنتَهُ البشريةَ من ولايتَيْ ڤرجينيا وكنتاكي، يأخذُها إلى منطقةٍ ذاتِ هواءٍ نقيّ، وخاصّةً إلى مناطقِ المياه المَعْدِنية، ليهتمَّ بتسمينها، وفي هذه المُنْتَجَعات يُقَدَّم لها الطعام دون حساب. ولمّا كان بعضُ العبيد تتولّاهم الكآبةُ، فإنّه يَحْرِصُ على أن يأتيَ بكمانٍ ليرقص العبيدُ على ألحانها ويُغَنُّوا، والعبدُ الذي

يتقاعَسُ عن الاشتراكِ في هذا المَرَح، يُنْظَرُ إليه على أنَّهُ عُنصُرٌ خطرٌ ذو وجهين، لهذا تُوَجَّهُ إليه جميعُ المضايقات من السيِّد الأبيض.

في اليوم التالي كان الجميعُ على استعدادٍ منذُ الصباحِ الباكر. وكان السيد سكيغز منهمكًا في إعداد مجموعةٍ جميلةٍ للمزاد. وقد صَفَّهُم جميعًا في دائرة وراحَ يدورُ عليهم، وقضيبُ الخَيْزُرانِ في يده والغليونُ في فمه، ليرى إن كان كلّ شيء على ما يُرامُ، قبلَ التوجُّهِ إلى سوقِ المزاد.

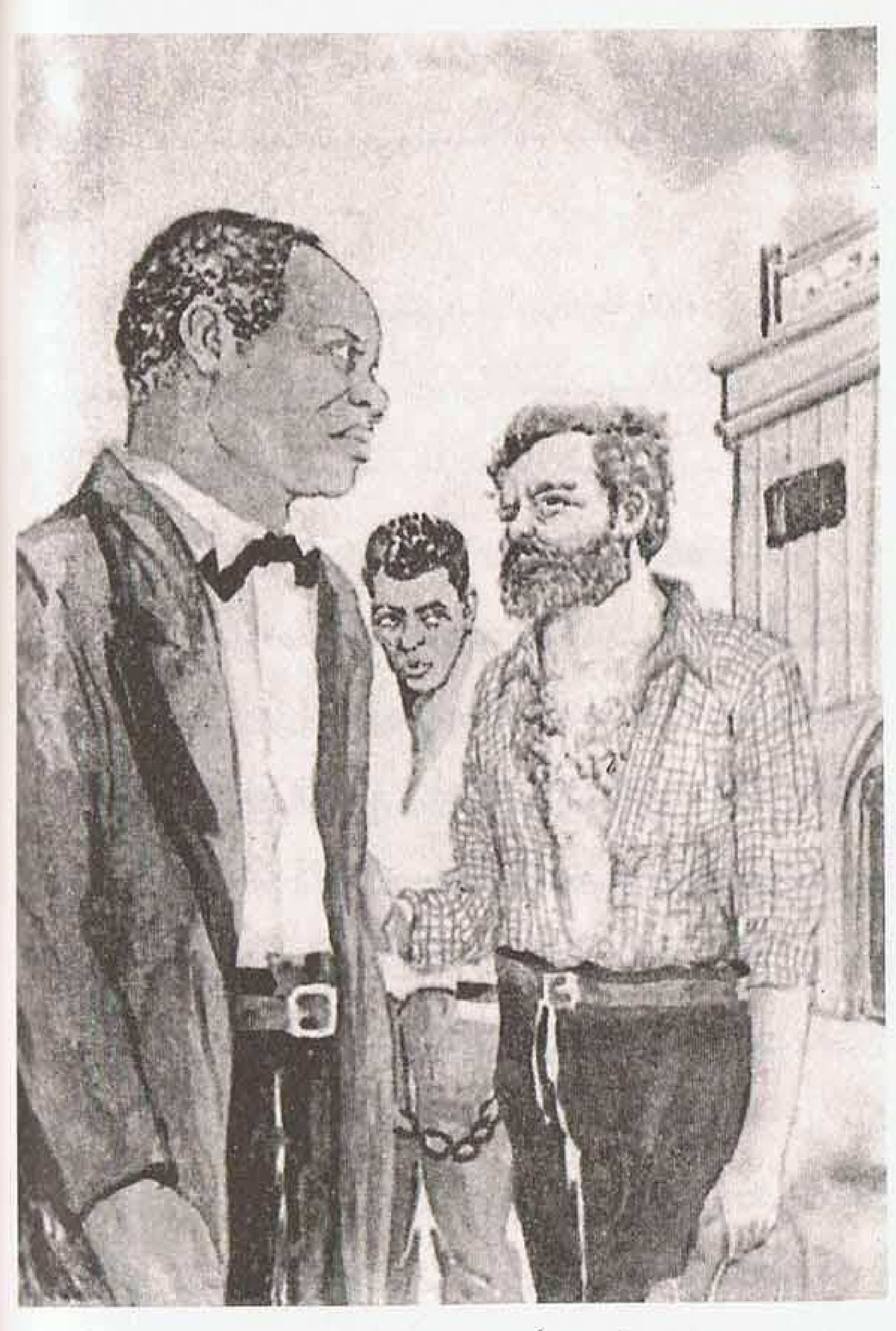
والسوقُ عبارةٌ عن دائرةٍ واسعة تَعْلوها قُبَّةٌ رائعةٌ، وعلى أرضها الرخاميةِ، يروحُ ويَغْدو رجالٌ من مختلِفِ الجنسيات، وعلى جَنَباتها تَقُومُ منصَّاتٌ للمُنادينَ والدلّالين. كان يقفُ على السّدَّتَيْن، القائمتَيْن في الطَّرَفَيْن المتقابلين، رجالٌ يتحدّثون ببلاغة وجاذبية، وبمزيج من الفرنسية والإنكليزية، محاولين تحميسَ المزايدين من الخبراء. وكانت هناكَ سُدَّةٌ ثالثةٌ يتحلّق حولها عددٌ من العبيد في انتظارِ افتتاح المزادِ عليها. مع هذه المجموعة كان يقفُ عبيدُ سانت كلير، وفي مقدّمتهم توم وأدولف. وكان يَزْدَحِمُ حولهم كثير من المشاهدين، الذين قد

يَشْترون وقد لا يشترون، والذين، على كلّ حال، يَلْمسون ويجسُّون وينظرون ويتناقشون، كأنَّهم طائفةٌ من «الجوكية» تفحص أحد الجياد.

وكان توم يرقُبُ تلكَ الوجوهَ المحيطةَ به، وهو غارقٌ في أفكاره. لقد رأى أناسًا كثيرين، ولكنّهُ لم يشاهِدْ سوى رجالٍ غلاظٍ مبتذَلين. ولم تقع عينُهُ على رجلٍ شبيهٍ بسانت كلير.

وقبل أن يبدأ المزادُ بدقائقَ تقدَّمَ من المكان، الذي كان يقف فيه، رجلٌ قصيرُ القامة، ضخمُ الجثّة، يرتدي قميصًا مشقوقًا يكشِفُ عن صدرِهِ وبنطالاً قديمًا قذرًا. وكان يتقدَّمُ بسرعةٍ، وهو يدفعُ الجَمْعَ ليَشُقَّ طريقًا لنفسِهِ، شأنَ من ليسَ لديهم وقتٌ يضيّعونه. ولمّا وصل إلى مجموعة العبيد بدأ يفحصها بدقّة بالغة.

أمّا توم، الذي كان يتابعُهُ بنظراته، فقد اعتراه منه، حين أبصره، خوفٌ مفاجئ، كان يزدادُ شدّةً كلّما اقترب الرجلُ منه خطوةً جديدة. كان، على قِصَرِهِ، يبدو متينَ البُنيان، بالغَ القوّة. كان رأسُه أشبهَ بالكرة، وكانت عيناه كبيرتَيْن يتراوح لونهما بين الرَّصاصي والأخضر، ويظلّلهما حاجبان كثيفان. أمّا شعره فكان


العمّ توم يتطلّع حوله كمن يلتمس النجاة...

أحمرَ خشنًا، وأمّا خدّاه فكانا ينتفخان وينبسطانِ ببطء مصطَنعٍ، بفعل مُضْغَةٍ من التبغ، كان يقذِفُ عصيرَها، بين الفينة والفينة، بشدّةٍ وتصميم. وكانت يداه، المكسوَّتان بالشعر، ضخمتين بشكل غير طبيعي، وكانتا خشنتين مدبوغتين، تكمل زينتهما أظافر طويلة قذرة.

وراح الرجلُ يفحص مجموعةَ العبيد دون تحرُّج. فأمسك بتوم من ذقنه، وفتح له فمَهُ ليفحَصَ أسنانه، وحمله على مَدِّ ذراعيه ليَجُسَّ عضلاته ويعرف مبلغ متانتها. ثمّ دارَ حولَهُ، وطلب إليه أن يقفزَ إلى أعلى ثمّ إلى أمام، كيما يتأكّد من قوّة ساقَيْه. ثمّ واجهَهُ فجأةً وسأله:

«أين نشأت؟»

أجاب توم، وهو يُجيل بصره في ما حوله كأنَّه يطلب النجدة:

«في كنتاكي!»

ـ «ماذا كنتَ تفعل؟»

ـ «كنت أُعْنَى بالمزرعة!»

ـ «يا لها من خرافة!»

وتحوّل عنه، ووقف أمام أدولف، وما لبث أن أطلق قذيفةً من البُصاقِ على حذائه اللامع النظيف، ومضى عنه، وهو يُغَمْغِمُ، بين أسنانه، شتيمةً من الوزن الثقيل. وتوقّف مرّةً ثالثة عند الفتاة إيملين، فراح يتحسّس ذراعيها وعُنقها، ويفحص أسنانها، ثمّ دفعها نحو أمّها التي كان الاضطراب يرتسم على قَسَماتها من أسلوب هذا الغريب الكريه.

وبدأ المزادُ، فبيع أدولف، بمبلغ محترَم، إلى شابّ أنيق. ثم بيع عبيد سانت كلير الآخرون، الواحدُ تِلْوَ الآخر، إلى سادة مختلفين.

وصاح المنادي بتوم:

«أنت الآن، يا ولد!»

فصعَدَ توم إلى المنصّة والقلقُ ظاهرٌ في عينيه. لم يكن صياحُ الدلّال مفهومًا في ذلك الضجيج الهائل. لقد كان ينادي على بضاعته بالفرنسية حينًا، وبالإنكليزيّة حينًا آخر، ويعدّد أوصافها ويُطْري مزاياها، ولكنّ صوته كان يضيع بين أصوات الدلّالين المختلفين والمزايدين من هنا وهناك. ثمّ سقطت

مِطرقةُ الدلّال، ولم يُسمع بوضوح سوى الكلمة الأخيرة: «دولار.»

وهكذا قضي الأمر، وأصبح لتوم سيّد جديد. فهبط من فوق المنصّة، فإذا بالرجل القصير البدين ذي الرأس الكرويّ يمسكه بعنف من كتفه ويدفعه إلى أحد الأركان وهو يقول بغِلظة:

«قف هنا!»

كان توم يبدو وكأنّه فقد وعيَهُ. واستمرّ المزاد صارخًا صاخبًا، بالفرنسيّة وبالإنكليزيّة... وتسقط المطرقة مرّة أخرى: لقد بيعت أمّ إيملين. كانت الأمّ المسكينة فريسة لليأس والألم ونَظَرَتْ إلى سيّدها، فتوسّمت فيه بَعْضَ الطيبة، فأقبلت عليه ضارعةً أن يشتري ابنتها. فأجابها، وهو ينظر إلى الفتاة برغبة مؤلمة:

«سأحاول!»

وجاء دور الفتاة، فصعدت إلى المنصة، وبدأت المزايدة حولها. وصار الثمن يرتفع ويرتفع، حتّى اضطرّ السيّد الطيّب

إلى التوقّف، ورسا المزاد عند الرجل الغريب، وبدا الأسف على سيِّد الوالدة.

أمّا السيِّد الجديد لايملين وتوم فيدعى السيِّد ليغري، وهو يمتلك مزرعةً على النهر الأحمر.

21 ـ الرحلة عبر النهر

في قاع السفينة التي كانت تصعدُ النهر الأحمر، كان يَقْبَعُ توم وفي يديه ورجليه سلاسلُ الحديد والأغلال، وفي قلبه صقيعٌ أثقلُ عليه من كلّ ما يحمله من القيود. لقد انقضى كلّ شيء بالنسبة إليه: الأحلام الجميلة، التي طالما داعبتْ خيالَهُ، هربت منه كما تهربُ الآنَ أشجار الضّفَتَيْن عن ناظرَيْه.. مزرعة كنتاكي، وامرأته، وأولاده، آل شلبي الطيّبون، ثمّ.. الرأس الأشقر الجميل للطفلة إيڤا ذات النظرة الملائكيّة. سانت كلير الطيّب ـ رغم تعاليه ولا مبالاته أحيانًا ـ الساعات الكسولة في منزل سانت كلير الفخم الرائع.. كلُّ ذلك قد ذهب.. ذهب إلى غير رجعة! وماذا حلَّ محلَّه؟

بعد أن اشترى السيِّد ليغري ثمانيةَ عبيد، من هنا وهنالك بأورليان الجديدة، ساقهم اثنَيْنِ اثنَيْن، والقيودُ في أيديهم، إلى المركب البخاري، الذي يطلق عليه اسم «القرصان» والذي كان يرسو في المرفأ القريب، ليصعَدَ بهم «النهر الأحمر.»

وبعد أن أقلعتِ السفينةُ، جاء السيِّد ليغري يستعرضُ عبيده الجدد. ووقف أمام توم، الذي كان النخّاس قد أمرَهُ بأن يرتدي أحسن ملابسه، من أجل البيع. فقد كان يلبس في تلك اللحظة قميصًا جميلاً منشّى، وينتعلُ حذاءً لماعًا. فأمره ليغري بغِلْظة أن يقف. ولـمّا كانت قيودُهُ تضايقه، فما كان من هذا إلّا أن شدّ الياقة المنشّاة من عنقه وانتزعها بعنف. ثمّ تحوّل إلى حقيبة توم، فأخذ منها بنطالاً قديمًا وقميصًا ممزّقًا، لم يكن توم يرتديهما إلّا عندما يذهب إلى إسطبل الخيل، فألقاهما إليه، وفكّ له قيوده، وأمره أن يذهب إلى فُرْجة بين الصناديق ليغيّر ملابسه.

وبعد أن استبدلَ توم الملابسَ الجديدة الجميلة بملابسِه الرثّةَ القديمة، أعطاهُ ليغري حذاءً قديمًا غليظًا وأمره بأن يخلع حذاءه الملمّع.

ولـمّا انتهى من هذه العملية، وأعاد السلاسل والقيود إلى حيث كانت من يَدَيْ توم الـمسكين وقدمَيْه، راح يفتّش في جيوبه. فوجد منديلاً حريريًّا وبعض اللُّعَب الصغيرة، التي كان توم يسلي بها إيڤا. فأمّا الـمنديلُ فقد دسَّه في جيبه وأمّا اللُّعَب فقد ألقاها في النهر.

ونظرَ في وجه توم، الذي كان يَقْطُرُ بالأسى، ثمّ ابتعد حيث تـجمَّع عليه العمّالُ والـمستَخْدَمون، فباعهم كلَّ محتوياتِ الـحقيبة، ثم الـحقيبةَ نفسَها، وهو، ما بين ذلك، يَسْخَرُ من العبيد، الذين يريدون أن يقلّدوا السادة.

بعد ذلك عاد إلى «بضاعته» وقال:

«اسمع، يا توم! لقد أرَحْتُكَ الآن من كلّ متاعٍ لا حاجة بك إليه.. فاعْتَنِ بـملابسك لأنَّكَ لن تنال غيرَها في القريب.»

ثمّ تراجعَ خطوةً أو خطوتين، وراح يَهْذُرُ قائلاً:

«اِسمعوا جميعًا! انظروا إليّ.. إلى عينيّ.. مباشرةً إلى عينيّ!»

وكان يضربُ الأرضَ بقدَمِهِ لدى كلّ أمرٍ من هذه الأوامر، واتجهَتْ إليه جميعُ الأنظار.. إلى عينَيْه الرماديَّتَيْن البرّاقتين، كأنّه استَولى على الـجميع بضَرْبٍ من السِّحر. واستَطْرَدَ يقول، وهو يرفع قبضَتَهُ الشبيهةَ بـمطرقةٍ ثقيلةٍ:

«والآن.. أترَوْن هذه القبضة؟.. إنّها!»

وضرَبَ بها على يَدِ توم:

«إنّني أحذركم قَبْضَتي هذه، فهي كتلة من الـحديد، لصَرْعِ الزنوج! وأنا لـم ألْقَ حتّى الآن زنـجيًّا واحدًا لا أستطيعُ صَرْعَهُ بضربة واحدة!»

ولوّح بقبضتِهِ قريبًا من وجهِ توم، حتّى إنَّ هذا أرجَعَ رأسَه إلى الوراء مُغْمَضَ العينين. وعاد يقول:

«أنـا لـم أتّـخِـذْ قـطُّ أيَّ نـاظـر زراعـة مـن أولـئك الـنظّار الـمناحيس.. إنّني، أنا، ناظرُ زراعتي! وأنا أحذِّركم بأنّني أرى كلَّ شيء، ولا تخفى عليّ أفاعيلكم. على كلٍّ منكم أن يَسيرَ معي سيرًا منتظمًا. لن تـجدوا عندي أيَّ تساهُل، فأنا إنسانٌ لا يَرْحَمْ!»

وظلَّتِ السفينةُ ماضيةً بحمولتها البائسة، في النهار الصاخب العَكِرِ، حتّى وصلَتْ إلى مدينةٍ صغيرة، أنزلَ فيها ليغري مماليكه.

22 ـ الأماكن المظلمة

اصطفّ توم ورفاقُهُ من الرجال، وراء عربة النقل الثقيلة، وراحوا يسيرون، حَسَب سرعتها، بمشقّة بالغة في طريق مُجهِدة، تتّجه نحو مزرعة ليغري. وكان ليغري يجلس على المقعد، أمّا المرأتانِ فقد أُلْقِيَتا في الداخل بين الأمتعة، وهما لا تزالان مقيَّدتَيْن.

وكان ليغري يُخرج زجاجة الخمرة من جيبه، بين الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ، ويَجْرَع منها جرعة. ثمّ نظر إلى الوجوه التي تتبعه. وقال:

«والآن، هاتوا لنا أغنية، أيُّها الأولاد!»

فراح المساكين ينظرون إلى بعضهم. وفي النهاية بدأ أحدهم أغنية، من تلك الأغاني الساذَجَة، المنتشرةِ بين الزنوج، وراحَ الباقون يرجِّعون وراءه اللازمةَ. كانوا يرفعون أصواتهم، ما أمكنَهُمْ ذلك، محاولينَ إشاعةَ جوٍّ من المَرَح.

ووصلت العربة، آخرَ الأمر، إلى المزرعة، التي كانت في الماضي، على ما يبدو، منظَّمةً وجميلة، إلّا أنَّ الإهمالَ ظاهرٌ الآن على مَنْزِلها وعلى ما حَوْله. ذلك أنَّ ليغري لم يكن يهتمّ إلّا بجمع المال.

وعلى صوت العجلات تنبَّهَ ثلاثةُ (أو أربعة) كلاب متوحّشة، فانطلقت نحو العربة، كأنَّها الذئابُ الكاسرة، ولولا ما بذله العبيد، الذين يعملون هناك، لمزَّقَتْ توم ورفاقه. وقال ليغري لهؤلاء وهو يداعبُ كلابَهُ:

«هذا ما ينتظرُكم، إن أنتم حاولتمُ الفرار! لقد دُرِّبَتْ هذه الكلاب على تعقُّب الزنوج، وهي قادرةٌ على التهامكم كما تلتهمُ طعامَها!»

وانهمك باستقباله عبدان، يَرْتديانِ الأسمالَ البالية ويبدو أنَّهما أهمُّ العبيد في المزرعة. إنَّهما سامبو وكامبو، اللذان ربّاهما ليغري على الشراسة والقسوة. وكان كلّ منهما يُبغِضُ الآخر، وكلاهما يُبغضان باقيَ العبيد، كما أنَّ هؤلاء يحملونَ أشدَّ الكُرْه للاثنين معًا. وعلى هذا النحو من استغلال التناقضات بين هؤلاء المساكين، كان ليغري يسخِّر الجميعَ لمصلحته.

وصاح ليغري:

«سامبو، خذ هؤلاء الأولاد إلى الحيّ!»

ثمّ التفت إلى إيملين، وأضاف:

«أمّا أنتِ، يا حلوتي، فادخلي هنا، معي!...»

ولم يسمع توم أكثر من ذلك، لأنّه اضطُرَّ إلى أن يَتْبع المجموعة.

وكان ما دعاه ليغري بالحيّ عبارةً عن ممرٍّ مظلمٍ خانق، يَبْعد قليلاً عن المنزل، وتقوم على جانبيه أكواخٌ حقيرةٌ أشبَهُ بالمخابئ، وأثاثُها الوحيدُ كومةٌ من القشّ موضوعةٌ على الأرض الترابية لتكونَ فراشًا للعبد.

وعاد العبيدُ العاملونَ في المزرعة إلى تلكَ الجحورِ في ساعةٍ متأخّرة. إنّهم قطيعٌ بائسٌ، من النساء والرجال، الذين يَرْتَدون الملابسَ الممزّقةَ الوسخة. وارتفعت أصواتُهم الخشنةُ، وهم يَخْتَصِمون حولَ المطاحنِ اليدويةِ، لينالَ كلّ واحدٍ دَوْرَهُ، قبلَ الآخر، فيطحن الحَبَّ الرديء لعشائه. وكانت تلك الفترةُ أدقَّ فترات الموسم، لهذا يُجْبَرُ كلّ عبدٍ على أن يقدّم

أقصى ما يستطيعُ من مجهودٍ للإسراع في جني المحصول. فتراهم يعودونَ من الحقول، وقد أنهَكَهُم التعب.

وظلّ صريرُ المطاحن حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل، لأنّها كانت قليلةَ العدد. أمّا توم فكان يُوشك أن ينهارَ من الجوع والتعب. وجاءه كامبو ورمى إليه كيسًا من الذرة الرديئة، وهو يقول:

«خذ، أيُّها الزنجي! وحاول أن تَقْتَصِد، لأنّك لن تنالَ غيرَه هذا الأسبوع!»

23 ـ كاسي

لم يحتج توم إلى وقت طويل ليعرِفَ كلّ ما تنطوي عليه حياتُه الجديدة. وقد حاول بجدّه واجتهاده، وبالإخلاص، الذي طُبع عليه، أن يُبعد عنه ما تَزْخَرُ به هذه الحياةُ من آلام. كما أنّه وطّنَ نفسَهُ على أن يتحمّل كلّ ما يُمكن أن يصيبَه من إيذاء ومن ظلم.

وقد لاحظ ليغري ما يتمتّعُ به توم من المزايا، فوضعه في مرتبة العبيد الممتازين، من حيث الإنتاج. إلّا أنّه كان يُبغضه بينه

وبين نفسه: إنَّه النُّفور الذي يشعر به الأشرارُ نحو الناس الطَّيِّبين. وقد لفت نظرَهُ أنَّه لا يقسو على عبد إلّا ويكون توم قد لاحظ ذلك. والواقع أنَّ ليغري، عندما اشترى توم، كان يفكِّر في أن يجعلَ منه مراقبًا على العبيد الآخرين. إلّا أنَّ المراقبَ لا بدَّ له من ميزة أساسية هي: القسوة! ولـمّا كان توم رقيقًا بطبعِهِ، فقد آلى ليغري على نفسه أن يقسِّيَه. وما إن مرَّت عدَّةُ أسابيع حتّى أزمَعَ على أن يبدأ تربيته على طريقته.

في ذات صباح، بينما كان العبيدُ متوجِّهينَ إلى حقول القطن رأى توم، مع الجميع، امرأةً جديدة تلفت النظر بشكلها وتصرُّفاتها. فقد كانت فارعةَ القامة، ممشوقةَ القدّ، رائعةَ اليدين والقدمين، مُحْتَشِمَةَ اللباس نظيفَتَهُ. وكان يبدو من شكلها، أنَّ سنّها تتراوح بين الخامسةِ والثلاثينَ وبين الأربعين. أمّا وجهُها فهو من تلك الوجوه التي لا تُنْسَى. وأخصُّ ما يستَرْعِي النظر في ذلكَ الوجهِ، عينانِ سوداوان كبيرتانِ تظلِّلُهما أهدابٌ طويلة، ويُقْرَأ في نظراتهما يأسٌ قاتل.

وقد لاحظ توم أنَّ المرأةَ كانت تعمل ببراعة وسهولة، وكان هو قريبًا من الخلاسية لوسي، التي كانت متعَبَةً، على ما يبدو.

فلمّا أصبح بجانبها أخذ من كيسه كميّةً من القطن ووضعها في كيسها، حتّى لا تتعرَّض إلى الضرب، لقلّة محصولها. وفي تلك اللحظة كان سامبو مُقْبلاً عليه، فرأى ما فعل. وكان يُغض لوسي إلى أبعدِ حدّ. فما كان منه إلّا أن رفسها بقدمه، وضرب توم بالسَّوط على وجهه. أمّا توم فقد استأنفَ العمل دون أن يَنْبِسَ بكلمة. وأمّا المرأةُ فقد أغميَ عليها. وصاح سامبو بوحشية:

«سأعيدُ إليها الوعيَ، فعندي ما هو أفضلُ من الكافور!» ثم سحب دبوسًا من كُمّ سترْتِهِ وغرَزَهُ في لحم المسكينة حتّى رأسِهِ، فأرسلَتْ أنّةً ونهضت قليلاً. فقال لها سامبو:

«حاولي ألّا تتوقّفي عن العمل بعد الآن، و إلّا أريتُكِ من العذاب ما تفضِّلين مَعَهُ الموتَ على الحياة!»

وسمع توم ما قاله سامبو، فعاوَدَ التحدّيَ مرّةً أخرى، وألقى، هذه المرّة، بكلّ ما يحتويه كيسُهُ في كيس لوسي. فقالت له لوسي وهي ترتجف:

«لا تفعَلْ! إنَّك لا تعرفُ ما يمكن أن يصيبكَ من جرّاء ذلك!»

وأجابها توم:

«أنا أقدَرُ منكِ على تحمّل التعذيب!»

وكانت المرأةُ الغريبةُ قد أصبحت قريبةً منه وسمعت ما قاله للوسي، فرفعت إليه فجأةً عينيها السوداوَيْن، وحدَّقت إليه قائلةً:

«إنَّكَ لا تدري في أيِّ مكان أنت.. و إلّا لما فعلتَ هذا! بعد أن تَقْضِيَ شهرًا هنا، لن تفكّر إلّا في حماية جلدك!»

ثمّ دسّتْ في كيسهِ حفَناتٍ من قطنها وتركتْهُ ذاهلاً، واستأنفت عملها بخفّة وبراعة. فلم يقبل آخر النهار حتّى كانت سلّتها ممتلئةً حتّى الأطراف. وقد عاونتْ توم أكثر من مرّة خلال العمل.

وظلّ العبيد يعملون إلى ما بعد الغروب. ومن ثمّ حملوا سلالَهم على رؤوسهم وعادوا مُتْعَبين، وهم يسيرون وراء بعضهم في صفّ طويل. وعندما وصلوا إلى حيث يسلّمون القطن، كان ليغري ماضيًا في حديث خاصّ مع مراقبيْه سامبو وكامبو. قال سامبو:



العبيد في حقل القطن

«إنَّ توم يبثُّ الفوضى عندنا. فقد فاجأتُهُ يَدُسُّ في كيس لوسي كميّةً من قطنه. وعلى هذا النحو سيتمكّن، ذاتَ يومٍ، من إقناع العبيد بأنَّهم يُعامَلون معاملةً سيّئةً هنا!»

ـ «هكذا؟. أحضِراه إلى هنا!»

قال هذا وانتقلَ إلى حُجرة الميزان، حيث كان يتقدَّمُ العبيدُ واحدًا واحدًا ليُسَلِّموا ما جَنَوْهُ، وهُمْ يرتعدون.

كانت سلّةُ توم تحتوي على الكمية المطلوبة. ولكنَّ نظراتِهِ كانت متّجهةً نحو المرأة التي ساعدها، والتي تقدَّمت بضعفٍ شديد نحو السيِّد. لقد كانت سلّتها ممتلئةً، إلّا أنّ هذا تصنَّعَ الغضب وصاح عليها:

«يا لكِ من كسول! إنّكِ لم تقدّمي الزِّنَةَ المطلوبة ففي هنا! وسنرى في أمرِك، فيما بعد!»

وأقبلَتْ كاسي ـ وهي المرأةُ الغريبة ـ فقدّمت قطنها بكثير من التعالي. فحدَّق إليها ليغري بشيء من السخرية، والقلق أيضًا. فنظرت كاسي داخلَ عينيه، ووجّهتْ إليه بضعَ كلماتٍ بالفرنسية، ثمّ أدارت له ظهرَها بكلّ احتقار وتولّت عنه مبتعدةً بتباطؤ.

ونادى ليغري توم إليه، وقال:

«توم، أنا أريد أن أجعلكَ تتقدّم. وسأُوكلُ إليك أمرَ الإشراف على أعمالي. وهذا المساء ستبدأ ممارستك للعمل: هيّا، اجلدْ هذه المرأة.»

ـ «سيِّدي! أرجو أن تُعْفِيَني من هذا العمل.. فأنا لم أقُمْ به يومًا في حياتي.. ولا أنوي أن أقومَ به!»

ـ «ستتعلّمُ كثيرًا من الأشياء، التي لا تعرِفُها، قبلَ أن تنتهي أيّامُك عندي!»

قال ليغري هذا وتناولَ سَوْطًا وضربَ وجه توم بمنتهى العنف، ثمّ انهالَ عليه جَلْدًا حتّى كلّت يداه. قال له:

«والآن، ماذا تقول؟ أأنت ما تزال ترفض جَلْدَها؟»

ـ «أجل، أيُّها السيِّد!».

ذلك ما أجابَ به توم بتصميم، وهو يمسحُ بيده الدَّمَ الذي كان يسيلُ من وجهه. ثمّ أضاف قائلاً:

«إنّني مستعدٌّ أن أعمل ليلَ نهارَ، ما دامَ في صدري نَفَسٌ يَتَرَدَّد! أمّا ما تَدْعونني إليه، فلَنْ أرتكِبَهُ، لأنّني أراهُ غيرَ عادل!»

وسَرَتْ همهمةٌ في جَمْع العبيد، الذين أذهَلَهُمْ توم بموقفه الصُّلب، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم، كاتمين أنفاسَهم في انتظار العاصفة. أمّا ليغري فقد أذهلتْهُ المفاجأةُ، لأنّه لم يكن يتوقّع أن يجرُؤَ عَبْدٌ من عبيدِهِ على عصيانه. وانفجرَ آخر الأمرِ وصاح:

«كيف، أيُّها الحيوان الأسودُ الحقير، لا تجدُ عدلاً ما آمرك به؟ ومتى كان لقطيعٍ من البهائم الدنيئةِ مثلكم أن يعرِفَ ما هو حقٌّ وما هو غيرُ حقٍّ؟ إذًا أنت ترى أنّه ليس من العدل أن تُجْلَدَ هذه المرأة؟!»

ـ «أجل، أيُّها السيِّد! إنَّ هذه المرأة ضعيفة ومريضة، وإنّه لمن القسوة أن تُجلَد، ولا يمكن لي أن أفعل ذلك! اقتُلْني، إذا شئتَ، أمّا أن أرفعَ يدي على أيٍّ من هؤلاء فلا! إنّني أفضِّلُ الموتَ على هذا!»

كان ليغري يرتجفُ من الغضب وكانت عيناه تَقْذِفانِ بالشرر. إلّا أنّه تمالَكَ نفسَهُ، كتلك الوحوشِ الضارية، التي تلاعب فريسَتَها قبل أن تُجْهِزَ عليها. وراح يهزأ بتوم قائلاً:

«ها هو كلبٌ وَرِعٌ يسقط علينا أخيرًا، نحن الخطأة.. قِدِّيس.. يحاول أن يَهْدِيَنا. إنّك لا تَعْرِف كتابك المقدّس.. ألم يقل «أيُّها الخدم، أطيعوا سادَتَكم؟» أَلَسْتُ سيِّدًا لكَ؟ ألم أدفعْ ألفًا ومئتي دولار في ما يشتملُ عليه هذا الهيكل الأسودُ اللعين؟ ألستَ مِلْكًا لي، جسدًا وروحًا؟»

وبحذائه الغليظ سدَّد رفسةً عنيفة إلى توم، الذي ترنّح وانطَوى، حتّى كاد يُلامِسُ الأرضَ. إلّا أنّه عاد وانتصَبَ كأنَّ هذا السؤالَ قد منحَهُ قوّةً جديدة، وبثّ في أرجاء نفسِهِ نُوْرَ الفرح، فقال، وهو يَرْفَعُ نظرَهُ نحوَ السماء بحماسةٍ وعزّة:

«كلّا! إنَّ روحي ليست لك، أيُّها السيِّد! إنّكَ لم تَشْتَرِها، ولستَ بقادرٍ على دفع ثمنها! لقد اشتراها من هو قادرٌ على صيانتها وحفظها! وماذا يضيرُني بعد ذلك؟ إنّك لا تستطيعُ أن تُلْحِقَ بي أيّ أذى!»

وهدَرَ ليغري:

«سوف نرى! سامبو، كامبو، إليّ، خذا هذا الكلب، واضرباه ضربًا لا يستطيع أن يقومَ منه، قبلَ شهر!»

وأمسك العملاقان الأسودانِ بتوم، واقتاداه دون أن يُبْدِيَ أيَّ مقاومة. وصرخَتِ الخلاسيّةُ تألّمًا عليه، ونهض العبيدُ بحركة واحدة.

24 ـ الخلاسيّة

كان الليل قد مضى جزءٌ كبيرٌ منه، وتوم مُلْقًى في حجرة مهجورة، تابعةٍ للمخازن، تُوضع فيها الأمتعةُ المُهْمَلَةُ، يئنّ ويتوجّعُ، والدماءُ تسيلُ من جراحه. وقد أكملَ صورةَ التعذيبِ عطشٌ كان يُلهِب أحشاءه.

وفجأة سَمِعَ وقعَ خطًى ورأى نورًا أمامَ عينيه. قال توم بصوتٍ ضعيف:

«مَنْ هذا؟ شربةَ ماء! للّه شربةَ ماء!»

وكانت القادمةُ هي كاسي. فوضعت المصباحَ على الأرض وصبّت له كوبًا من زجاجة حملَتْها معها. قال:

«شكرًا! شكرًا لك، يا سيّدتي!»

ـ «لا تدعُني سيّدتكَ، فلست سوى أَمَةٍ بائسةٍ مثلك!»

وقرّبت فراشًا من القش، ووضعتْ عليه غطاءً مبللاً وطلبت منه أن يحاولَ الانتقالَ إليه، ففعلَ، بَعْدَ جهدٍ كبير، لأنّه كانَ محطّمًا. وأراحَتْه الرطوبةُ بعضَ الشيء. ثمّ أخذت كاسي تُضَمّدُ له جراحَهُ.. ثمّ قالت:

«ما كان لكَ أن تفعلَ ما فعلتَ، أيُّها المسكينُ، إذ لا فائدةَ تُرْجى من ذلك. إنّك رجلٌ شجاعٌ، ولكنَّ المقاومةَ لا تُجْدِيك نفعًا، وما عليكَ سوى الخضوع. فنحن في مزرعةٍ نائية، وليس هنا رجل أبيض واحد يُمكن أن يشهد بأنّك أُحرِقتَ أو سُلِختَ أو رُميتَ إلى الكلاب أو جُلدت حتّى الموت! ومن يكون زملاؤك هؤلاء، لتتحمّل العذاب من أجلهم؟ ليس بينهم واحد لا ينقلبُ ضدّك، لدى أوّلِ فرصة!»

ـ «يا لَهُمْ من بائسين!.. ومَنِ الذي جَعَلَهُم بهذه القسوة؟ إنّني، إن خضعتُ فلسوف أتحوّلُ شيئًا فشيئًا إلى إنسانٍ قاسٍ. لقد خسرتُ كلّ شيء: المرأةَ، والولدَ، والسَّكَنَ، والسيّدَ الطيّبَ، فلا أريد أن أخسرَ كذلك السماءَ، وأُصبح رجلاً شرّيرًا! لَشَدَّ ما أخافُ أن أصبح قاسيًا كسامبو!

ورمقَتْهُ بنظرة شاردة كأنَّ فكرة جديدةً قد هزَّتْها. وأرسلتْ زفرةً طويلةً، ثمّ قالت:

«إنَّك تقولُ الحقيقةَ.. مع الأسف!»

وتهالكَتْ على الأرض، وهي تتلوّى، وتكادُ تختنقُ، تحتَ تأثيرِ ألمٍ مُمِضٍّ لا يُطاق. وصَمَتَتْ هُنَيْهَةً ثمّ أردفَتْ قائلةً بضَعْفٍ:

«وما فائدةُ المقاومة؟ إنَّ على المرء أن يَخْضَعَ أو يَموتَ تحتَ وطأةِ العذاب!»

ـ «إذًا، سأموت! إنّني مُستعدّ، وأنا واثقٌ بأنَّ اللّه سيأخذ بيدي!»

وفي تلك الليلة قَصَّتْ عليه مأساتها، ورَوَتْ له كيف انتقلتْ من يدٍ إلى يد، حتّى صارت إلى بيت هذا الوحش. بعد ذلك تركت ماءً إلى جانبه ومَضَتْ.

في ذلك الوقتِ كان ليغري يجلسُ في البهو أمام النار، ويحتسي كأسًا من «البنش» وهو مُسْكِرٌ شديد التأثير.

كان يلعن بينه وبين نفسه سامبو، الذي سبَّب له تلك الخصومةَ مع عبيده الجُدُد، في زَحْمة العمل، فإنَّ توم لا يستطيعُ أن يعودَ إلى العمل قبل أسبوع. وفيما هو مستغرقٌ في هذه الأفكار دخلَ عليه سامبو، وناوله شيئًا ملفوفًا في ورقة. قال ليغري:

«ما هذا، أيُّها الكلب؟»

ـ «إنَّها تَمِيمة، يا سيِّدي، من تلك التمائم التي يحصُلُ عليها الزنوج من السَّحَرة، حتّى لا يُحِسُّوا ألمًا للجَلد. وقد وجدْتُها مربوطةً حول عُنُق توم.»

وكان ليغري ممَّن يُؤمنونَ بالخرافات إيمانًا أعمى. فلما فتحها وجدَ دولارًا فضّيًا وخصلةً من الشعر الأشقر. والتفَّت الخصلةُ حولَ إصبعه، فداخلَهُ من ذلك هلَعٌ شديد. وصاح في وجه العبد هائجًا، وهو ينزعُ الخصلةَ من إصبعه، ويقذِفُ بها في النار:

«من أين أتيتَ بهذا؟ لا تحمِلْ إليَّ بعد الآن هذه الأشياء الشيطانية!»

فاستولى الذهولُ على سامبو، وفرَّ من أمامه، ناجيًا بنفسه.

والسرُّ في ما استولى على ليغري من خوفٍ يَرْجعُ إلى ذكرياتٍ بعيدة. فقد كان يعيشُ حياةَ استهتارٍ وانحلال بشعة، بعد أن غادر منزلَ الأسرة. وفيما كان ذاتَ ليلة غارقًا في ملذّاته البهيميةِ مع أصحابه المتفسّخين، جاءه من يُخبرُهُ بموت أمّه، حاملاً إليه خطابًا منها. كان الخطابُ بمثابة وداع أخير، وقد أعلنت فيه والدته أنّها قد صَفَحَتْ عنه، وغفرَتْ له تَبَذُّلَهُ وإسرافَهُ على نفسه. وكانت ضمنَ الرسالة خصلةٌ من شَعْرِها، كتلك التي وُجِدَتْ في صدر توم. وما إن تناوَلَها حتّى التفَّتْ على إصبعه، فأحسَّ كأن عقربًا قد لَسَعَتْهُ، وانتفَضَ من رأسِهِ حتّى القَدَم. وسارَعَ إلى إلقاء الخصلةِ في النار. ومنذ ذلك الحينِ وهو فريسةٌ لكوابيسَ تُلِمُّ به بين الحين والحين، فيرى كأنَّ أمّه واقفةٌ عند رأسه، شاحبة الوجه، وخصلةٌ من شعرها تلتفّ حول أصابعه، فتشنِّجُها، فيقفز من سريره، وقد استولى عليه رعبٌ مجنونٌ، وتصبَّبَ العرقُ الباردُ من وجهه وجبينه.

ولكن بعد أن مضى سامبو عنه، واستعادَ بعضَ هدوئه، لام نفسَهُ لأنّه أظهَرَ مثل هذا الضّعفَ أمام عبده. ورأى أنَّ أفضلَ وسيلةٍ لطرد هذه الأفكار هي أن يدعوَ تابعَيْهِ الأسودين ليغنيًا

ويَرْقصا له. وكان من عادته أن يُحْضِرَ عبدَيْه هذين، ويقدِّم إليهما الويسكي ليسمَعَ أغانيهما ويشهَدَ رقصاتِهما الجهنميَّة. وكانت الساعة تناهزُ الثانيةَ بعد منتصف الليل، عندما عادت كاسي من حيث كان توم مطروحًا، وسمعت ذلك الضجيجَ الهائلَ، مختلِطًا بنُباح الكلاب. فمضت إلى حجرة إيملين.

في صباح اليوم التالي دخل ليغري على توم، ودفعه بقدمه قائلاً:

«قل، أيُّها الولد.. كيف تَجِدُ نفسك؟ هل أعادَكَ درسُ الأمس إلى الصواب ونَزَعَ منك الصَّلَفَ؟»

فلم يُجب توم، فرفسه ليغري قائلاً:

«هيّا انهض، أيُّها الحيوان!»

ولكنَّ النهوض ليس بالشيء السهل على رجل مسحوق العظام. ومع ذلك، أخذ توم يحاول الوقوفَ، بمشقّةٍ بالغة، حتّى استوى في مواجهة سيِّده هادئًا. قال هذا وهو يُقَهْقِهُ بوحشية:

«هأنْتَذا واقف! أرى أنّك لم تَنَلْ ما فيه الكفاية. والآن اركع، يا توم، واطلب الصفحَ من مولاك، لما قُلْتَهُ أمسِ!»

فلم يتحرَّك توم. فصاح ليغري، وهو يلسَعُ وجههُ بالسَّوط:

«اركع، أيُّها الكلب!»

قال توم بهدوء:

«أيُّها السيِّد ليغري، إنَّني لا أستطيعُ أن أفعلَ هذا! لقد قمت بما رأيتُهُ صوابًا، وسأتصرَّف، في المستقبل، على هذا النحو مهما حَدَثَ!»

ـ «إذًا فأنت لا تعرفُ ما الذي سيَحْدُث، يا سيِّد توم؟ أتعتقدُ أنَّ ما أصابك يُعَدُّ شيئًا؟ إنَّه لا شيء! أتحبُّ أن تُرْبَطَ إلى جِذْع شجرة، وتُوقَدَ النارُ من حولك؟ سيكون ذلك منظرًا رائعًا، أليس كذلك؟»

ـ «سيِّدي، أنا أعلمُ أنَّ في وسعك أن تقومَ بأعمالٍ رهيبة، ولكن..»

ورفع توم جبهته وضمّ يديه، وأكمل:

«ولكن، بَعْدَ أن تكون قد قتلتَ الجسد، تصبح عاجزًا عن عمل أيّ شيء آخر.. هنالك يبدأ الخلود!»

وصَرَفَ ليغري بأسنانه، ولكنّ هياجهُ نفسَهُ قد حال بينه وبين الكلام، في حين استرسل توم في كلامه بصوت واضح

مُسْتَبْشِرٍ، كأنَّ كلماتِهِ، التي أشعَّت في روحه قد حرَّرَتْه من كلِّ قيد:

«أيُّها السيِّد ليغري! لقد اشتريْتَني، وأنا مستعدٌّ لأن أكونَ لك عبدًا طيِّعًا أمينًا.. مستعدٌّ لأن أمنحَكَ كلَّ وقتي.. لأن أقدِّمَ إليك كلّ ما تستطيعُهُ يداي وقوَّتي من عمل! أمّا الروحُ فلا أمنحُها لإنسان فانٍ، لأنَّني نَذَرْتُها لله! أنا لا أرهبُ الموت، أيُّها السيِّد ليغري، بل أنتظرُهُ، في أيّ لحظة أتى! في إمكانك أن تَقْتُلَني.. أن تُميتني جوعًا.. أن تُشْعِلَ النارَ في جسدي.. فلن يكونَ من شأنِ ذلكَ سوى الإسراعِ بإرسالي إلى حيثُ لا بدّ لي أن أذهبَ في يومٍ من الأيّام!»

قال ليغري وهو يَصْرِف بأسنانه:

«ولكنَّك ستخضع قبل ذلك!»

«لن تستطيع إخضاعي، لأنَّني سأتلَقَّى المعونة!»

ـ «ومن ذا الذي يُعينك؟»

ـ «إنَّه المولى القادرُ على كلِّ شيء!»

وسدَّدَ إليه ليغري لكمةً ألقتْهُ على الأرض وصاح:

«خُذْ حذْرَكَ! إنّني أتركك الآن، لأنَّ الأعمال تلحّ عليّ، وأنا في حاجة إلى جميع الأيدي، ولكنّني لا أنسَى أبدًا! لقد سجّلتُ ذلك عليك، لأستوفيَهُ من جِلْدِكَ الأسود العجوز!»

25 ـ الحرّيّة

بعد العناية التي لقيها توم لوكر في منزل الكويكريّين، رأى أنّه كان على خطأ، فنبّه أهلَ المنزل إلى أنَّ أوصاف إليزا قد نُشرت، وأنَّ هناكَ من يراقبُ المسافرين عند المرفأ في ساندسكي. وبالفعل فقد قصّت إليزا شعرها وارتَدَتْ ملابسَ الرجال، فبدَت شابًّا في غاية الملاحة والجاذبية. وقد تدرّبت على حركات الشباب وتوسيع الخطى، حتّى لا يشكَّ أحدٌ فيها. وتولّتِ السيّدة سميث تغيير مظهر هنري الصغير، فأصبحَ طفلة باسم هنرييت. وقد تمّت جميعُ عمليات التنكّر حَسَبَ نصائح توم لوكر. كما تمّ الاتفاق على أن تقوم السيّدة سميث بدور سيّدة كندية عائدة إلى بلادها، في صحبة ابنَيْ عمّها، أي جورج وإليزا ـ الشابّ ـ ومعها ابنة أخيها الطفلة هنرييت.

وهكذا نزل الجميع وركبوا العربة إلى المرفأ. وعندما هبطوا كانت السيّدة سميث تتأبّط ذراعَ الشاب، اللطيف (إليزا)، بينما كان جورج يهتمُّ بنقل الأمتعة.

ودخلتِ السيّدةُ سميث، والطفلةُ إلى حُجرة النساء، حيث جَذَبَ جمالُها وعذوبتُها اهتمامَ المسافرات. وأقبلْنَ عليها يلاطِفْنَها. أمّا جورج فقد كان يرتّب أمرَ الرحلةِ في حُجْرة القُبْطان. وفي ذلك الوقت استمع إلى حديثٍ كان يجري بين رجلين يقفانِ على مقربةٍ منه. قال أحدُهما للآخر:

«لقد راقبتُ جميع المسافرين، فلم أَرَهُمَا بينهم.. إنّني واثقٌ من ذلك!»

كان هذا هو محاسب المرفأ، أمّا الآخر فلم يكن سوى ماركس، الذي تَبِعَ الهاربينَ حتّى ساندسكي. وقال ماركس:

«إنَّ المرأةَ لا يمكنُ تمييزُها عن امرأة بيضاء إلّا بصعوبة تامّة. وأمّا الرجلُ ففي إحدى يديه حرقٌ ظاهرٌ.»

وارتجفت يدُ جورج، ولكنّه انحرف قليلاً، وألقى نظرةً هادئةً دون مبالاة على الرجل، ثمّ اتّجه إلى ناحية إليزا، التي كانت تقفُ في الطّرَفِ الآخرِ من السفينة.

وقُرِعَ الجرسُ، وغادرَ ماركس السفينة، وانتقل إلى الرصيف. وشاهدَهُ جورج الذي، ما إن تحرّكتِ السفينةُ مبتعدةً عن الرصيف، حتّى تنفّسَ الصُّعداءَ، وانزاحَ العبءُ الذي كان يُثْقِلُ صدره.

كان الطقسُ رائعًا، وأمواجُ البحيرةِ الزرقاءُ تلتمعُ في الشمس. وتهُبّ من الساحل أنسامٌ رَخِيَّةٌ مُنْعِشة. والسفينة تتهادى بجلال راسمةً وراءها خطًّا طويلاً لا يُحَدّ.

وأخيرًا ظهر الساحل الكنديّ. وراحتِ السفينةُ تقترب من مدينة آمهرتسبرغ، ثمّ رست في الميناء. فجمع جورج أمتعتَهُ، وهبط وصَحْبَهُ، وهو لا يدري ماذا يفعل.

وأخذتهم السيّدة سميث إلى مبشّر طيّب كان يبذلُ المعونةَ لأولئك المساكين، الذين يَقْدمون إلى كندا هربًا من الاستعباد وسعيًا وراء الحرية.

لم يكن في استطاعة جورج وإليزا أن يُخلِدا إلى النوم في تلك الليلة: لقد كانا غريبين في بلد لا يملكان فيه بُوصةً من الأرض، وليس لهما سقفٌ خاصّ يُظلّهما.. وقد صرفا آخر

دولار معهما في الرحلة.. ولكنّهما كانا أسعدَ الناس، لأنّهما كانا يملكان أثمن شيء في الوجود: الحرية!

26 ـ الانتصار

عندما كان توم أمام جلّاده، وكان يستمع إلى تهديده ووعيده كان يشعر بأنّه قادرٌ على تحمّل جميع ألوان العذاب. ولكنْ بعد رحيل ذلك الجلّاد عنه، عادت إليه أوجاعُهُ المبرِّحة، وشعرَ باليأس والضياع.

وقبل أن يَشْفى بزمن طويل أجبره ليغري على استئناف العمل وكانت ألوانُ الظلم والقهر والإهانة لا تنفكّ تلاحقه. وكان يرى أنّ صَبْرَه وطُوْلَ أناتِهِ يبتعدانِ عنه يومًا بعد يوم، ويحلّ محلّهما اليأس. كان يفكّرُ في الرسالةِ التي أرسلتها أوفيليا إلى أصدقائه في كنتاكي ويدعُو اللّهَ أن يرسِلَ من يخلّصُهُ من هذا العذابِ.

وفي ذاتِ عَشِيّة كان يجلسُ أمامَ النارِ الضئيلةِ التي أعدَّ عليها عشاءَهُ، مُرْهَقَ النَّفْس، سيِّئَ الحال إلى أبعدِ الحدود. فأخرج كتابَهُ المقدّسَ ليحاولَ قراءةَ بعض الآيات. ولكنَّ الكلماتِ لم تكن تجدُ صداها المعتادَ في نفسه. فهل فقدَتْ

تـأثيرَهـا الـمقـدَّسَ بـالـنسبـة إليـه؟! أرسـل تـوم زفـرةً مـن صـدره الـمُتْعَب، وأعاد الكتابَ إلى جيبه.

وسمع قهقهةً وراءه. وكان ذلك هو ليغري الذي قال له ساخرًا:

«ها أنت، أيُّها العجوز، ترى أخيرًا أنَّ الدِّين لا يُجْديكَ فائدةً تُذْكَر. لقد كنتُ أعلَمُ أنَّكَ ستدركُ ذلكَ!»

فلـم يُجِبْ توم. واستطرَدَ ليغري قائلاً:

«عـنـدمـا اشتريتُـكَ كنت أحتفظُ لك بنوايا طيِّبة. كان في وسعك أن تكون في وضعٍ أفضل بكثير من وضع سامبو وكامبو، وأن تقضي هنا أيامًا سعيدة، وتجلد الآخرين بَدَلَ أن تتلقّى الـجَلْد كُلَّ يوم أو يومين. وكان في وُسْعِكَ أن تتناولَ بين الـحين والآخر كأسًا من الويسكي. هيا، ألقِ في النار هذه الرزمةَ من السخافات!»

قال توم في خشية الـمؤمن:

«معاذَ اللّه!»

ـ «إنَّـك تـرى أنَّ الـلّـه لا يَـحْـميك، وإلّا لـمـا سمح بأن أشتريك.. إنَّه من الأفضل لك أن تلجأ إليَّ أنا!»

ـ «كلّا، يا سيِّدي، كلّا! وسواء أَرَعاني اللّه أم تخلّى عنّي، فإنَّني سأظلّ مؤمنًا به مدى الـحياة!»

وبصق ليغري عليه، ورَكَلَهُ بقدَمه، وقال له قبل أن يتولّى عنه:

«إنَّك لأسخفُ مـمّا كنت!»

وظلَّ توم قابعًا في مكانه أمام النار الـمنطفئة، كأنَّه تـحوَّل إلى تـمثال من الـحجر. وفجأةً تـجلَّت أمامَ بصره صورة رأسٍ عليه إكليلٌ من الشوك والدم يسيل منه. وكانت نظراتُ الرأسِ العميقةُ الـحزينةُ تهزّ مشاعرَه هزًّا. وما لبثتِ الأشواكُ أن تـحوَّلت إلى أشعّةِ انتصار. ومال نحوه الوجهُ الـمشعُّ بسناء لا يدانيه سناء، وقال بصوت زاخر بالرقة والـحنان: «طوبى لـمن يصبر ويقاوم لأنَّه يجلسُ معي على عرشي!»

كم دامت تلك الغيبوبةُ التي غرِق فيها توم؟.. لـم يعرِفْ.. كلّ ما يعرفُهُ أنَّه، عندما أفاق، أحسَّ بأنَّه اجتاز الأزمة التي انتابته وعرَّضته للضياع، فلـم يَعُدْ يُحسُّ بالـجوع والبرد، ولا بالبؤس والإهانة.

ومنذ تلكَ الليلةِ امتلأ قلبُ ذلك المظلومِ بالسكينة والسلام. ولم يَخْفَ ذلك التغيُّرُ على أحد. فقد عاد إليه مَرَحُهُ، ولم تَعُدْ أيُّ إهانةٍ تستطيعُ أن تُخْرِجَهُ عن هدوئه وتطفئ البسمةَ الراضيةَ عن شَفَتَيْه. وهذا ما كان يزيدُ في غَيْظِ ليغري، ويُشْعِرُهُ بأنّ يَدَهُ أصبحت قصيرةً عن ضحيّته.

كانت نفسُ توم تفيض بالمحبة والعطف على أولئك البائسين الذين يعيشونَ حولَهُ. وكان في أثناء الذَّهاب إلى الحقول أو العودة منها، لا يَعْدَمُ وسيلةً لتخفيف أعبائهم وتقوية مَعْنوِيّاتهم.

وفي ليلة من الليالي، وبعد أن نام جميعُ مَنْ في الكوخ، الذي يَرْقُدُ فيه، أفاق مذعورًا إذ رأى من الكُوَّة المفتوحة، وجهَ كاسي، وقد ألقى عليه البدرُ بعض أشعّتِهِ. وأشارت إليه أن يوافيَها إلى الخارج. ولـمّا أصبحَ أمامها قالت له وهي تشدُّه من ذراعه:

«أتريدُ أن تكون حرًّا، أيُّها الأب توم؟ تعال إذًا، ففي استطاعتك أن تتحرّر هذه الليلةَ بالذّات: إنّه ينامُ نومًا عميقًا، بعد أن أكْثَرتُ له من الشراب. والبابُ الخلفيُّ مفتوح، وقد وَضَعْتُ

بقربه بَلْطة.. تعالَ معي إلى حجرته.. لو كانت لي القوةُ الكافيةُ لكنت نفّذتُ ذلك بنفسي.. تعال!»

كانت كاسي، التي تولّاها يأسٌ جنوني، تريد أن تنتقم لنفسها، لجميع المعذَّبين، من ليغري، لِمَا اقترفت يداه الأثيمتانِ من ظلم ومن تنكيل.

قال توم، وهو يتراجعُ، بعد أن عَرَف قصدَها:

«كلّا، يا سيّدتي، لن أفعلَ هذا، ولو أُعْطِيتُ ملكَ الأرض!»

ـ «فكِّر في هؤلاء الأشقياء الذين سَنُخَلِّصُهم! في إمكاننا أن نقطع غابات الساڤانا ونجدَ لنا جزيرةً نعيش فيها! أيُّ حياة يمكن أن نحياها ستكون أفضلَ من هذه!»

ـ «كلّا! إنَّ الخيرَ لا يمكن أن ينشأ عن الشرّ! لأفضلُ عندي أن تُقطع يدي من أن أغمِسَها في الدم! علينا أن نصبرَ وننتظرَ الفَرَج!»

وراح توم يتحدّث إلى كاسي برقّةٍ ومحبّة حتّى تمكّن من تهدئة ثائرتها، وإعادتِها إلى الرشد، ثمّ أضاف قائلاً:

«إذا كنتِ تستطيعين الهربَ، فافعلي، وخذي معك إيملين، شريطةَ ألّا تُهْرَقَ نقطةٌ من الدم.»

ـ «جرِّبْ حظّك معنا، أيُّها الأب توم!»

ـ «كلّا!.. لقد مرّت بي فترةٌ كان من الممكن لي أن أفعل ذلك فيها، أما الآن فإنّني أشعرُ بأنّي مسؤولٌ أمام الله عن هؤلاء البائسين، وأنَّ عليَّ أن أبقى إلى جانبهم.. وسأبقى معهم، حتّى آخر المطاف. أمّا أنتِ فلكِ شأنٌ آخر!»

27 ـ الخديعة

كانت الشونة (صومعة الغلال في أعلى المنزل) في منزل ليغري متّسعة الأرجاء، إلّا أنّها مهجورة، تراكم الغبار على أرضها، ونَسَجَتِ العناكبُ خيوطَها في مختلفِ زواياها. وكان المالك القديم الثريّ قد ترك فيها بعضَ الأثاث، الذي ظلّ مكوّمًا في ناحية منها. وقد ارتبطت صورةُ هذه الشونة بخرافاتٍ وقصصٍ شتّى، عن ظهور أشباح فيها، وصدور عويل وتأوُّهات من داخلها. والذي أفزع منها العبيدَ، المؤمنين بالخرافة،

وجعلَهُمْ يوقنون بأنّها مسكونةٌ بالأرواح، لدرجة أنَّ ليغري غضِبَ يومًا من إحدى الإماء فسجَنَها فيها عدّةَ أسابيع. ولم يعرِفْ أحدٌ ماذا جرى لها بالضبط، إلّا أنّ جُثمانَ المسكينة أُنزِلَ ذات يومٍ ليُدْفن. ومنذ ذلك الحين لم يَعُد أحدٌ يقترب من السُّلَّمِ المؤدّي إلى الشونة، بل هُجِر حتّى الممرّ المُفضي إلى السلّم.

واستغلّت كاسي هذا الواقعَ فأخذت تَبثُّ الخوفَ في نفس ليغري، شيئًا فشيئًا من تلك الشونة، وهو المستعدُّ لتقبُّل الخرافات والتأثّر بها، كيلا يفكّر في الاقتراب يومًا من ذلك المكان. وقد نجحت في مهمّتها، فملأته رعبًا من ذلك الجناح. فابتعَدَ عنه بصورة نهائية. وفي نفس الوقت كانت تنقُلُ إلى الشونة مؤنًا تكفي لمدّة طويلة. كذلك نقلَتْ أغلَبَ ملابسها، وهيّأت كلَّ ما تحتاجُ إليه، هي وإيملين، بعدَ هربهما. ووضعت خطّةً مُحْكَمَةً لذلك الهرب. وقبل بدء التنفيذ بيوم واحد، طلبت من ليغري، الذي كانت تسيطرُ عليه بقوّة شخصيَّتها، أن يأخذَها معه إلى المدينة المجاورة، الواقعة على النهر الأحمر. ولمّا كانت تتميَّزُ بذاكرةٍ عجيبة فقد حفِظَت كلَّ دقائقِ الطريق، وقدّرت الوقت الذي يلزم لقطع المسافة.

ولـمّا جاءت الليلةُ المحدَّدةُ للهرب، أعدّت صُرَّتَيْن، وصعدت إلى حجرة إيملين، وأعلنت لها بدءَ التنفيذ، وقالت:

«سنخرجُ من الباب الخلفيّ لنصِلَ إلى أسفل مساكنِ العبيد. ولا بدّ، في هذه الحال، من أن يرانا سامبو وكامبو، فيجريا خلفنا، فندخل بين أعشاب الساڤانا المرتفعة. عندها لا بدّ أن يعودا ليأتيا بالآخرين ويُطْلِقا الكلابَ في أثرنا. وهذه فسحةٌ من الوقت تكون أمامنا: فبينما تكون الفوضى قد دبَّت والعبيد يتخبَّطونَ ويصيحون، نكون نحن قد وصلنا إلى الجدول، الذي يجري بمحاذاة المنزل. فنخوض الماء حتّى الباب، فتفقدُ الكلاب أثرنا. عندها ندخل من الباب الخلفي، ونصعد إلى الشونة، حيث هيّأتُ مَرْقَدًا مريحًا في أحد الصناديق الكبيرة. وهناك سنمكثُ مدةً من الوقت، لأنَّهم سيبحثون في كلّ ناحية من نواحي الساڤانا.

وخرجت الهاربتان من المنزل، دون إحداث أيِّ صوت واستطاعتا، بفضل الظلام، أن تصلا إلى أكواخ العبيد، ولـمّا أصبحتا على حدود الساڤانا، حَدَثَ ما توقّعت كاسي. فقد سمعتا من يناديهما. ولكن لم يكن ذلك سامبو، بل ليغري نفسه.

وراح ليغري، الذي اتّجه نحو الحي، يصيح بملء صوته: «سامبو، كامبو، أقبِلا! هناك هاربان.. أطلقا في أثرهما الكلاب!»

وانتشر النبأ في كل مكان. وجرى العبيدُ هنا وهنالك وراحوا يوقدون المشاعلَ، ويفكّون الكلاب، التي اختلط نباحها بصراخ العبيد. فعلا الضجيجُ وامتدّت الفوضى.

وعلى أضواء المشاعل اندفعت الفرقة الصاخبة كلّها نحو الساڤانا وانتشرت فيها. وعندما وصلت كاسي وإيملين إلى المنزل لم يكن فيه أحدٌ على الإطلاق. وقبل أن تصعدا إلى الشونة، مرّت كاسي بالخزنة، فأخذتْ منها رزمةً من الأوراق النقدية، وخبّأتها في صدرها قائلةً:

«هاكِ سيكون لنا عونًا على الانتقال إلى أرض الحرية! تعالي، يا إيملين، فعندي ما يكفي من الشموع والكتب لملء الوقت.. بإمكانك أن تكوني على ثقة تامة من أنَّ أحدًا لن يفتِّش عنّا في هذا المكان!»

وعندما استقرّتا في الشونة كانت إيملين متعبة فأخْلَدَتْ إلى النوم، أمّا كاسي فقد تناولت كتابًا فرنسيًّا وراحت تقرأ باطمئنان.

28 ـ الشهيد

كان لهرب إيملين وكاسي تأثيرٌ بعيدٌ في ليغري. فلقد ملأ نفسَهُ غيظًا وضاعف ما فيه من قسوة ووحشية. وقد صبّ غضبَهُ، كما كان متوقّعًا، على رأس توم البريء براءة الطفل. ذلك أنّ سيمون ليغري، عندما أُعلِن النبأ، لاحظ بريقًا في عينَي توم، كما لاحظ أنّه لم يشترك في حملة التفتيش والملاحقة.

واستؤنف التفتيشُ في اليوم التالي، ولكنّه لم يُؤَدِّ، بالطبع، إلى نتيجة. فكان من أثر هذه الهزيمة التي مُنيَ بها ليغري أن تحوّل غضبه إلى هياج مدمّر. وجلس في البَهْو ممدَّدًا على مقعده، وصاح:

«كامبو، هات توم إلى هنا بسرعة، فهذا العجوز مُطَّلعٌ على كلّ ما حدث.. سأستخرج السرَّ من جلده الأسود!»

لم يكن سامبو وكامبو، اللذان يُبغضان بعضهما، متّفقَيْن إلاّ على شيء واحد هو معاداة توم. فلقد أخبرهما ليغري بأنّه اشترى توم ليجعلَ منه مراقبًا عامًّا، خلال غيابه.

وقد أحسّ توم، عندما تلقّى الأمر بالمثول أمام السيّد، وعرف ما الذي ينتظره. ولكنّه كان مُوْقِنًا بأنّ اللّه سيكونُ بجانبه.. فوضع سَلّتَهُ على الأرض واستسلم إلى يدَيْ كامبو القاسيَتَيْن.

ولمّا وصَلَ مشى إليه ليغري وأمسك بتلابيبه فجأةً وقال:

«أتعلَمُ أنّني قررت أن أقتلك؟»

أجاب توم بمنتهى الهدوء:

«إنَّ هذا ممكنٌ جدًّا، أيُّها السيِّد!»

قال ليغري وهو يقطّع كلماته:

«أجل، لقد.. وطّدت.. العزم.. على.. أن أقتلك إذا لم تقل لي ما تعرف.. أين هاتان المرأتان؟»

أجاب توم بهدوء وتصميم:

«ليس لديَّ ما أقوله لك، أيُّها السيِّد!»

ـ «إذًا فأنت لا تعرف شيئًا؟»

فالتزم توم الصمت. وانفجر ليغري، كما تنفجر الصاعقة، وصاح وهو يضربه بعنف:

«تكلَّم.. أتعرف شيئًا؟»

ـ «أجل، أعرِف، ولكنّني لا أستطيع أن أقول شيئًا! في استطاعتي أن أموت!»

وتنفَّس ليغري بصعوبة. ولكنَّه كَظَمَ غَيْظَهُ. وأمسكَ توم من ذراعه ثمّ اقترب بوجهه منه، وقال له بصوت رهيب:

«لقد اتخذت قرارًا في هذه المرة بأن أروِّضَكَ أو أقتُلَكَ!»

فرفع توم عينيه نحو سيِّده وأجاب قائلاً:

«لو رأيتُكَ متألِّمًا أو مريضًا، في أو حالة نَزْع، وكان في وُسْعي أن أُنقذَك، لبذلتُ دمي في سبيل ذلك! إنَّني مستعدٌّ لبَذْل هذا الدمِ، من أجل إنقاذِ روحكَ الثمينة! سيِّدي، لا تحمِّل نفسَكَ هذه الخطيئةَ، فإنَّك بذلك تسيء إلى نفسِك أكثر مما تسيء إليّ! مَهْما تصنَع بي فإنَّ آلامي سرعانَ ما تنقضي، أمّا أنتَ فإن لم تَتُبْ فما لآلامك من نهاية!»

وتَبعَ ذلك صمتٌ طويل. وكان ليغري يقف جامدًا زائغ البصر. ولكنَّه عاد فخنَقَ في نفسه ذلك التردُّد، وصَبَّ على توم كلَّ غضبِهِ، فأخضعَهُ لتعذيبٍ دامَ عدّةَ ساعات ولكنّه لم يستطعْ

أن ينتزعَ منه أيَّ سِرّ. وكان لا ينفكّ يصيح بِعَبْدَيْهِ أن يستمرّا في التعذيب والتنكيل إلى أن يعترف.

وفتح توم عينيه ونظر إلى سيّده، ثمّ أُغمي عليه. قال ليغري:

«أظنُّ أنَّه انتهى!.. لا بأس! لقد أُطبِق فمه.. وهذا كسبٌ على أيّ حال!»

ولقد أثَّرتْ توسُّلاتُ توم ورقّته وكلماتُهُ الغريبة تأثيرًا عميقًا في الشقيَّين اللَّذين كانا يُنْزِلانِ به العذاب. فما إن غادر ليغري المكان حتّى أقبلا على توم يحاولان رَفْعَهُ وإعادتَهُ إلى الحياة. وهمس سامبو:

«لقد قمنا بعملٍ بالغ السوء.. ولكنْ أعتقِدُ أنّه مُحْتَسَب على السيِّد لا علينا.»

ومن ثمَّ غسلا جراحاتِهِ، ومهَّدا له فراشًا من نُفايات القُطْن، وجرى أحدُهما إلى المنزل، حيث طلبَ لنفسه كأسًا من الكحول، ولما عادَ صبَّ منها قليلاً في فم توم. وقال كامبو:

«توم، لقد ارتكبْنا نذالةً حِيالَكَ.»

فردّ توم بصوت خافت:

«إنَّني أصفحُ عنكما من كلِّ قلبي!»

29 ـ السيّد الشابّ

بعد يومين اثنين كان شابٌّ في مُقْتَبَلِ العمر، يَرْكَبُ عربة خفيفة، ويجتازُ الشارعَ الذي تَنْتَصِبُ على جانبَيْه أشجارٌ مختلفة. ولم يكن ذلك الشابّ سوى جورج شلبي.

ولا يخفى أنّ الآنسة أوفيليا كانت قد بعثت برسالة إلى السيّدة شلبي بخصوص توم. إلّا أنّ هذه الرسالة قد نُسِيَتْ لمدّة شهرٍ أو شهرين في مكتبِ البريد. في أثناء هذهِ المدّةِ، بِيعَ توم وجيء به إلى ضفاف النهر الأحمر. وقد تألّمت السيِّدة شلبي لما حدث، ولكن لم يكن في إمكانها أن تفعلَ شيئًا عندما تسلّمت الخطاب، إذ كانت تلازمُ سريرَ زوجها المريض، الذي ما لبث أن تُوُفِّي.

وها قد اهتدى جورج إلى مكان توم وجاء ليشتريه.

وأُدخل الشابّ على سيمون ليغري، وهو جالس في البهو، فاستقبلَهُ هذا بأدب يَشُوبه النَّزَق. وما إن ذكر له جورج موضوعَ زيارته، وعَرَض عليه أن يشتريَ منه توم، حتّى اكفهرَّ وجهُهُ وقطَّبَ وعاودَتْهُ سَوْرةُ الغضب وقال:

«لقد اشتريتُ، بالفعل، شخصًا بهذا الاسم.. إنَّه عبدٌ سيِّئ متمرِّد. فقد كان يشجِّعُ عبيدي على الهرب، وهربَتْ بمعونته، من عندي أَمَتانِ تساوي كلٌّ واحدة منهما ألفَ دولار. وعندما سألته عن مكانهما، أجاب بكبرياء بأنَّه يعرفُ أين هما، ولكنَّه لا يريد أن يبوحَ بأيِّ شيء. ولمّا رأيتُهُ لا يتزحزحُ عن موقفِهِ أمرتُ بجلدِهِ بشدّة! وهو الآن يحاول أن يموت، ولا أدري إن كان سينجح!»

فصاح جورج وقد احتقَنَ وجهُهُ والتمعَتْ عيناه:

«أين هو؟ أريد أن أراه!»

قال عبد صغير كان يمسك بحصان جورج:

«إنَّه في هذا المخزن!»

كان توم راقدًا منذ يومين. ولكنَّه لم يعد يشعُرُ بألم، لأنَّ أعصابَ الألم في جسده قد تحطّمت وضَعُفت، فأصبح في حالة خدَرٍ وسكون. وكان العبيدُ، من حين إلى آخر، يَقْصِدون إلى المكان الذي سُجِّيَ فيه، مُضَحِّينَ بجزءٍ من وقتِ راحتهم.

وقد علمَتْ كاسي، التي كانت تُنصِتُ إلى ما يدورُ في المنزل، بأنَّ توم مشرفٌ على الموت من أجلها ومن أجل

إيملين، فجاءت إليه، غيرَ عابئةٍ بالخطر، واستمعَتْ إلى كلماتِهِ الأخيرة، التي هزَّتْها، فبكَتْ وصلّت.

ولـمّا دخلَ جورج إلى المخزنِ دار رأسُهُ وأوشَكَ أن يقَعَ على الأرض. قال وقد ركعَ بقُرْبه:

«أوَهذا ممكنٌ، أيُّها الأبُ توم.. أيُّها الصديق؟!»

وكأنَّ شيئًا خَفِيًّا في ذلك الصوتِ قد تغلغَلَ في رُوح المُحْتَضر، فحرَّك رأسَه ببطء وقال:

«لقد جعلَ اللّهُ فراشَ موتي أنعَمَ من الريش!»

وانحنى الشابّ على العبد المسكين، والدموع تجري على خدَّيه. وفتح توم عينيه، وقال بصوت خافت:

«سيِّد جورج!»

وبدأت الأفكار تستفيقُ في رأسه شيئًا فشيئًا، كما بدأت عيناه الزائغتان تستعيدان شيئًا من البريق والقدرة على التحديق. ثمّ أضاء وجهه، واشتبكت يداه الخشنتان، وسالت من عينيه الدموع، وقال:

«الحمد للّه! هذا كلّ.. نعم.. كلّ ما كنت أتمنّاه! إنَّهم لم ينسَوْني! إنَّ هذا ليُدفئ منّي الروحَ! إنَّه يُنزلُ السَّكينةَ في قلبي! فأنا أموت الآن راضيًا مُطْمئنًّا!»

ـ «كلاّ، إنَّكَ لن تموت! ينبغي ألّا تموت.. لقد جِئْتُ لأشتريك.. لأعيدك إلى منزلنا!»

ـ «هيهات، يا سيِّد جورج.. لقد فاتَ الأوان! لقد اشتراني اللّه وسيحملُني إليه!»

ـ «لا تمُت، يا توم! إنَّ موتَكَ يقتلني!»

وأخذ توم يدَ سيِّده الشابّ وضغَطَ عليها بيده وقال:

«لا تخبر كلو في أيّ حالٍ رأيتني، فسيكون هذا صدمةً قويةً لها. قل لها إنَّ اللّه كان معي في كلّ لحظة، وإنَّه جعلَ لي كلَّ شيء سهلاً هيِّنًا. وأولادي.. ابنتي الصغيرة؟.. آه، كم تحطَّم قلبي العجوزُ المسكين، وأنا أفكِّر فيهم! قل للجميع أن يحذوا حَذْوي.. أنقُلْ عواطفي إلى سيِّدي وسيِّدتي الطيِّبة وإلى الجميع. يُخَيَّلُ إليَّ أنَّني أحبُّ الناس كافةً: المحبةُ هي كلُّ شيء في هذا الوجود!»

بذلك استنفَدَ توم كلَّ الطاقة التي منحه إيَّاها مرأى جورج بجانبه. فغرق في غيبوبة لـم يُفقْ منها. وما لبث أن تولّاه ضعفٌ شديدٌ وتسارَعَتْ أنفاسُه، ثمّ سكنَتْ لينام النومةَ الأبدية، وعلى فمه ابتسامةٌ راضية.

وجلس جورج ساكنًا باحترام، بعد أن أطبق عينَي صديقِهِ الراقد. ثمّ التفت فرأى ليغري واقفًا وراءه مقطَّبَ الـجبين. قال جورج، وهو يَرْمُق الإقطاعيّ بنظرةٍ نافذةٍ ويشير إلى الـمَيْت:

«لقد أخذتَ منه كلَّ ما تستطيعُ أن تأخذ، فكم تطلُبُ في الـجثّة؟»

أجاب ليغري بصلَف:

«أنا لا أبيع العبيد الأموات.. في وسعِكَ أن تدفنَهُ حيث شئت!»

وتوجَّه جورج إلى ثلاثةٍ من العبيدِ كانوا هناكَ وقال لَهُم بلهجةٍ آمرة:

«ساعدونـي، أيُّها الأولاد، على رفعِهِ ووضعهِ في عربتي، ثمّ احملوا إليَّ رفشًا.»



العمّ توم يلفظ أنفاسه الأخيرة

لـم يلتفت إلـى ليغري أو يوجّه إليه أيّ كلمة، في حين أنّ هذا كان يَصْفِرُ متصنّعًا عدمَ الاكتراث.

وخلعَ الشابُّ معطفه، وفرشَه في العربة، مؤخِّرًا المقعد الخلفي، ليفسح مكانًا كافيًا للجثمان. وبعد أن وُضِع الميت التفت إلى ليغري وقال بهدوء مُغْتَصب:

«ليس المكانُ ولا الوقتُ مناسبَيْن لأقولَ لك رأيي في هذه القضية. ولكنّني سأثأرُ لهذا الدم البريء.. سأنشرُ على الملأ أنباء هذه الجريمة، وسأذهبُ إلى القاضي وأبلغه عنك.»

أجاب ليغري باحتقار، وهو يفرقع بإبهامه وإصبعه الوسطى:

«هيّا اذهب! أريدُ أن أعرفَ ما الذي ستفعلُهُ.. أين الشهود؟ وأين البيِّنة؟ أنا في انتظارك!»

وشعر جورج بوطأة هذا التحدّي. فالواقع أنّه لم يكن في الدار رجلٌ واحدٌ أبيض، ومَحاكِمُ الجنوب لا تقبَلُ شهادةَ أيِّ شخص مختلِطِ الدم. وأضاف ليغري ساخرًا:

«على أيِّ حال، أنت تثيرُ ضجّةً كبيرةً لموت عبد!»

كانت هذه الكلمات بمثابة شرارة أصابت برميلاً من البارود. ولم يكن جورج، وهو من أهل كنتاكي، يتحرّى الحذَرَ كثيرًا، فما كان منه إلّا أن استدار نحو ليغري وسدّد إلى وجهه لكمة هائلة أطاحت به.

في الحقيقة إنّ هناك أناسًا إن عاملتهم بالضرب احترموك. وكان ليغري من هذا النوع، فقد نهض عن الأرض ونفض ثيابه المُعَفَّرَة، ثمّ راح يتابعُ العربة بنظرِهِ، وهي تبتعد.

وبعد أن قطع جورج حدودَ المزرعة، رأى مرتفعًا من الأرض تظلِّلُهُ عدّةُ أشجار، فأمرَ العبيدَ بحَفْر قبر لتوم هناك.

30 - المحرِّر

لم يكتب جورج إلى والدته سوى سطرٍ واحد، ينبئُها فيه بعودته. فالواقعُ أنّ قلبه لم يطاوِعْهُ في أن يصِفَ لها المشهدَ المحزن الذي رآه. ولقد حاول أكثرَ من مرةٍ، أن يفعَل، فكانتِ الصُّوَرُ المؤلمةُ تزدَحِمُ عليه، فتعتصِرُ منه القَلْبَ وتُرْهِقُ الأنفاس، فيمزّق الورق، ويكفكف دمعه، ويخرج من الحجرة، ليعيد إلى نفسه الهدوء.

وفي يومِ وصولِهِ كانت تَرتفعُ من الدار ضجّةُ الفرَح والحبور. وكانت السيِّدة شلبي تنتظرُهُ في البهو، حيث تتأجّجُ في الموقد نارٌ غنيّة تطرُد رطوبةَ تلك الأمسيةِ من أماسيّ الخريف الأخيرة. وكانت تلتمع على مائدة العشاء آنيةُ الفضّة والبِلّوْر الممتاز.

وكانت الأمّ كلو تشرف على جميع هذه الترتيبات، وقد ارتدتِ ثوبًا جديدًا من القطن، واعتمرَتْ غطاءَ رأسٍ رائعًا. وكان وجهها الأسود الملتمع يُشْرِقُ بالبهجة والاستبشار. وكانت تتلكّأُ عند المائدةِ، مُضِيفةً أشياءَ جديدةً وتجميلاً جديدًا، حتّى يتسنّى لها أن تتحدّث إلى السيِّدة.

«هكذا.. لَكَمْ سيجدُ من المتعة! هنا مكانُهُ المُفَضَّل.. بالقرب من النار.. إنَّ السيِّد جورج يحبّ الدفء! أتساءلُ لماذا لم تضَعْ سالي إبريقَ الشاي الجديد، الذي اشتراه السيِّد جورج لسيِّدتي من أجل عيد الميلاد؟ سآتي به، أنا، بنفسي!»

ثمّ أضافت، موجّهةً الخطابَ إلى السيِّدة شلبي، بصورة مباشرةٍ، وفي صوتها شيء من القلق:

«هل تلقّت سيِّدتي أنباء من السيد جورج؟»

ـ «أجل، يا كلو!.. خطابًا واحداً، يقول فيه إنَّه سيعود في هذا اليوم.. ولا شيء غيرَ ذلك!»

ـ «أوَليس فيه شيء عن زوجي المسكين؟»

ـ «كلّا، يا كلو! لا شيء.. إنَّه يعلن أنَّه سيطلعنا على كلّ شيء متى جاء!»

ـ «السيِّد جورج لا يتغيّر.. إنَّه يحب دائمًا أن يقول الأشياء بنفسه!»

وبعد صمت قصير، استطردَتْ كلو قائلةً:

«أعتقد أنَّ عجوزي لن يَعْرِفَ الأولاد!.. والصغيرة؟.. إنَّها قويّةٌ الآن.. إنَّها في البيت تراقبُ قُرْص الحلوى.. لقد صنعتُ له قرصًا كما يحبّ ويشتهي.. وهو مخبوزٌ خبزًا ممتازًا..»

وتنهّدَتِ السيِّدة شلبي كأنَّ عبئًا ثقيلاً يَجْثُمُ على قلبها، فمنذ أن تلقّتِ الخطاب وشعورٌ خفيّ يُعَذِّبُها. لقد كانت تحسّ بأنَّ مصيبةً تكمُنُ وراءَ ذلك الصَّمْتِ الذي التزَمَهُ جورج.

قالت كلو:

«هل تحتفظُ سيِّدتي بالأوراق؟ إنّني أريد أن أُرِي زوجي نفسَ الأوراق التي أعطانيها صاحبُ المصنع. لقد قال لي:

«كلو، كم أودّ أن أحتفظَ بكِ في معملي مدةً أطولَ من هذه!

قلت: شكرًا لك، يا سيِّدي.. ولكنَّ زوجي سيعودُ، وسيِّدتي لا تستطيعُ الاستغناء عنِّي أكثر من هذا! ذلك ما قلتُهُ له بالحرف.. يا لَهُ من رجلٍ رائع، ذلك السيِّد جونس!»

لقد أصرَّت كلو على أن يُحتفَظَ لها بنفس الأوراقِ المالية التي تلقّتها كأجرٍ على خدماتها، كيما تُرِيَها لزوجها بوصفها دليلاً على حذقها ومهارتها.

وفي تلك اللحظة سُمِعَ صوتُ عجلاتٍ تقترب. صاحت كلو، وهي تخفّ إلى النافذة:

«إنَّه السيّد جورج!»

وجَرَتِ السيِّدة شلبي نحو الباب الخارجي لتستقبل ابنها الذي ما إن أطلَّ حتى أخذَتْه إلى صدرها، بينما وَقَفَتْ كلو إلى جانبها تحاولُ أن تخترقَ ببَصَرِها حُجُبَ الظلام في الخارج.

والتفت إليها جورج، وهو في غاية التأثر، وقال:

«مسكينة، أيّتها الأمّ كلو!»

وأخذ اليد السوداء بين يديه، واستطرد يقول:

«لو كان في وُسعي أن أعيده، لما تأخّرتُ عن بذل ثروتي برُمَّتِها في سبيل ذلك.. ولكنَّه رَحَلَ.. رَحَلَ إلى عالمٍ أفضل!»

وصرخت السيِّدة شلبي، ولكنَّ كلو لم تنبِسْ بكلمة. ودخل الجميعُ إلى حجرة الطعام. وكانت نقود كلو لا تزال موضوعة على المائدة، فجمعتها المسكينة وقدَّمَتْها إلى سيّدتها بيد مرتجفة وهي تقول:

«دونك هذه الأوراق يا سيّدتي، إذ لم تَعُدْ بي حاجةٌ إلى الاحتفاظ بها، أو التحدُّث عنها! لقد كنت أعلم، في قرارة نفسي، أنَّ هذا هو الذي سيحدث: يُؤخذ إلى تلك المزارع القديمة ويُقتل فيها!»

واستدارت كلو وخرجت من الحجرة بإباء. فلحقتْ بها السيِّدة شلبي، وأمسكتْها من يدها وعادت بها، ثمّ جلستْ وأجلسَتْها بجانبها. فأسندت كلو رأسها إلى كتف سيِّدتها وراحت تنتحب وتقول:

«آه، يا سيِّدتي إنَّ قلبي لَيتفَطَّر!»

قالت السيِّدة شلبي وهي ترسل الدموع السخية:

«أنا أعلم مبلغ أساكِ، يا كلو، ولست بقادرة على التخفيف عنك! إنَّ اللّه وَحْدَهُ هو الذي يستطيعُ أن يُنزل السكينة في قلبك!»

وأخذ الثلاثة يبكون. ومن ثمّ جلس جورج إلى جانب المرأة المفجوعة، وراح يواسيها ويصِفُ لها ببلاغة وبساطة مشهدَ الموت البطولي لزوجها، ذلك الموتِ الذي يُعَدّ نصرًا مُبينًا! وردّد على مسمعها كلماتِ المحبة والحنان، التي نطق بها توم قبل مماته.

بعد شهر من هذا التاريخ، دعِيَ جميعُ عبيدِ المزرعة إلى الاجتماع في البَهْوِ الكبير، ليستمعوا إلى شيء هامٍّ يريد أن يعلنه عليهم سيِّدهم الشابّ.

وكم كان دَهَشُهم بالغًا عندما دخل عليهم وفي يده رزمةٌ من الأوراق الرسميَّة: تلك كانت صكوكَ تحريرهم. وقد راح يقرأها على مسامعهم واحدًا بعد الآخر، ويقدِّمها إلى أصحابها. وانحدَرَتْ دموع الفرح، وعمَّ النحيبُ وتعالى الهُتاف من كلّ جانب.

وأقبل عليه كثيرٌ منهم يَرْجونه أن يظلَّ معهم، وأن يستعيدَ تلك الصكوك، كانوا يقولون:

«إنَّنا لا نحتاج لأن نكون أحرارًا أكثر ممّا نحن الآن! لا نريد أن نغادرَ بيتنا القديم، وأن نبتعد عن سيِّدنا وسيِّدتنا!..»

وبعد عناء تمكَّن جورج من إسكاتهم. ثمّ قال لهم:

«أيُّها الأصدقاء الطيِّبون، إنَّكم لن تتركوني، فالمزرعة ما زالت محتاجةً إلى الأيدي التي تعمل بها، تمامًا كما في السابق. ولكنَّكم، رجالاً ونساءً، أصبحتم أحرارًا. وأنا سأدفع لكم مقابل عملكم أجورًا نتفقُ عليها فيما بيننا. إنَّ الفائدةَ التي تَجْنُونها من وراء ذلك هي أنَّكم، في حال موتي أو إفلاسي ـ وهما أمران قد يَحْدُثان في أيّ لحظة ـ لن تُؤخَذوا قسرًا وتباعوا، إنَّني سأبقى في المزرعة، وسأعلِّمكم كيف تستطيعون أن تمارسوا الحقوق التي حصلتهم عليها بوصفكم أحرارًا!»

وانبرى زنجيٌّ عجوز، ابيضَّ رأسه في هذه المزرعة، ورفَعَ ذراعَيْن مرتعشتين نحو السماء وصاح:

«لنشكرِ الإله على هذه النعمة!»

وركعَ الجميع شكرًا للّه.

وبعد لحظة، قال جورج:

«بقيتْ لـيْ كلمة واحدة أحبّ أن أقولها لكم. لا بدّ أنّكم ما زلتـم تذكرون الأب توم الطيّب...»

وراح يَرْوي لَهُـم قصّـةَ مـوته الفاجع، ويُبْلِغُهـم تـحيّات الوداع التي حمّله توم إيّاها لكلّ فرد في المزرعة. ثمّ أضاف بصوت هادئ رزين:

«على قبره، أيّها الأصدقاء، اتّخذتُ هذا القرار. لقد عاهدتُ اللّه على ألّا أمتلك، في يوم من الأيّام، عبدًا ما لـم يكن في وُسْعي إعتاقُه، وألّا أكون سببًا في انتزاع أيّ شخص من منزله ومن بين أفرادِ أسرته، ليذهبَ إلى مزرعةٍ من تلك المزارع البعيدة المنعزلة، ليموت فيها، كما مات توم.»

«أيّها الأصدقاء، كلّما شعرتُم أنّكم سعداءُ بالحرية، التي تتمتّعون بها، اذكُروا أنّكم إنّما نِلْتُموها بفضل تلك الروحِ الطاهرةِ النقيّة، وَوَفّوا حقَّهُ عليكم محبةً وعطفًا على امرأته وبنيه! واذكروا حُرّيتكم كلّما نظرتـم إلى كوخ العمّ توم! وليذكّركم هذا الكوخُ بالمَثَل الطّيب الذي ضَربه لكم صاحبُهُ.. سِيروا على خُطاهُ، وكونوا مثلَهُ صادقينَ مُخْلِصين، طيّبين!»

أسئلة حول «كوخ العم توم»

1 – عمّ كان الحوار يدور بين شلبي وهالـي؟

2 – بـمَ امتدح شلبي الخادم توم؟

3 – كيف تـمّت الصفقة؟

4 – لماذا أُعيد الخادم جورج إلى المزرعة؟

5 – ما الذي أثار حفيظة النخّاس؟

6 – كيف دُبّرت المؤامرة لتخليص إليزا من السيّد هالـي؟

7 – مـا كـان مـوقف السيّدة بيرد من القانون القاضي بعدم مساعدة الملوّنين؟

8 – علّل توم نفسه بأحلام جميلة هل تحقّقت؟ ولماذا؟

9 – كيف كانت معاملة الأسياد للعبيد؟ وما رأيك بهذه المعاملة؟

10 ـ ما رأيك في أجوبة العم توم للسيّد ليغري وعبدَيْه؟

11 ـ ما الدرس الذي استقاه السيّد جورج شلبي من العم توم؟

12 ـ ما المبادئ التي نستخلصها من تصرّفات العم توم عبر مراحل حياته؟

13 ـ عُد إلى القاموس واشرح ما يلي:

الصفقة ـ أبناء جلدتها ـ الألمعيّة ـ سرّى ـ كلّت يداه ـ اكفهرّ ـ الأرائك الوثيرة ـ نكث العهد ـ سفح ـ مصفّدة ـ عكف على الملذّات ـ الكاهل ـ وطّن العزم ـ غامت عيناها ـ رأى ضيرًا ـ هادن ـ تفطّر القلب ـ تنبس بكلمة ـ قول هراء ـ الأسمال ـ ألم ممضّ ـ تهالك ـ الصلف ـ الأناة ـ ركل ـ التلابيب.

14 ـ لماذا لم تلحق ألف تنوين النصب: «أسىً» و«لوعةً» في «امتلأت أسىً ولوعةً؟»

15 ـ لماذا دخلت فاء الجزاء على جواب الشرط في: «مهما بدت الظروف ضدّنا فإنّ اللّه حريّ بأن ينتشلنا ممّا نحن فيه؟»

16 ـ إذا كان الخوار للثور فلمن يطلق: الصهيل ـ النهيق ـ الزئير ـ النعيق ـ الزعيق ـ الخرير ـ الحفيف ـ الفحيح؟

17 ـ إذا كانت الحظيرة بيت الغنم والماعز، فلمن يكون: العرين ـ الوجار ـ الجحر ـ الإصطبل ـ الخليّة؟

18 ـ حوّل الجملة التالية إلى مثنّى:

«إنّني أرى السيّد برًّا بكلّ مَنْ حوله، يعطف عليهم ويفرغ عليهم حنانه، ولكنّه لا يرحم نفسه.»

19 ـ إذا كانت لفظة: «أبويّ» نسبة إلى أب، قل كيف ينسب الاسم المحذوف اللام؟

20 ـ علّل كتابة الهمزة في «يطفئ» و«بتباطؤ.»

21 ـ علّل كتابة التاء في «ميزات» و«معاداة.»

22 ـ صرّف فعل «دعا» بالأمر.

23 ـ أعرب: إنّك لم تعرفي بعد كلّ الحقيقة.

24 ـ موضوع مستوحًى من القصّة:

قيل: «الحرّية هي الحياة.»

اشرح هذا القول وبيّن أهمية الحرّية في الحياة.

المحتويات

1 - رجل إنساني.............................3
2 - الأمّ.............................13
3 - سهرة في كوخ العمّ توم.............................22
4 - عواطف البضاعة البشرية.............................25
5 - الاكتشاف.............................31
6 - لوعة أمّ.............................37
7 - إنسانية عضو مجلس الشيوخ.............................45
8 - تسليم البضاعة.............................52
9 - النُّزل.............................60
10 - عند جماعة الكويكرز.............................65
11 - إيڤانجلين.............................69
12 - السادة الجدد.............................74

13 ـ رجل حرّ يدافع عن نفسه 77
14 ـ تجارب وآراء الآنسة أوفيليا 84
15 ـ كنتاكي 96
16 ـ الزهرة تذوي 98
17 ـ موت إيڤانجلين 107
18 ـ لقاء........................ 109
19 ـ من تخلّى عنهم البشر 116
20 ـ دار الرقيق........................ 121
21 ـ الرحلة عبر النهر 130
22 ـ الأماكن المظلمة 134
23 ـ كاسي 137
24 ـ الخلاسيّة 146
25 ـ الحريّة 154
26 ـ الانتصار 157
27 ـ الخديعة 162
28 ـ الشهيد 166
29 ـ السيّد الشابّ........................ 170
30 ـ المحرِّر 177
أسئلة حول «كوخ العمّ توم» 185

المكتبة العالميّة للفتيان والفتيات

☐ الإصدار الجديد لسلسلة «المكتبة العالمية» الشهيرة، والأكثر مبيعًا.

☐ تُلبّي كُتُب هذه السلسلة المخصَّصة للمطالعة:
الحاجات اللغوية والفكرية للفتيان والفتيات في المرحلتين المتوسطة والثانوية، وتُنمّي خيالهم.

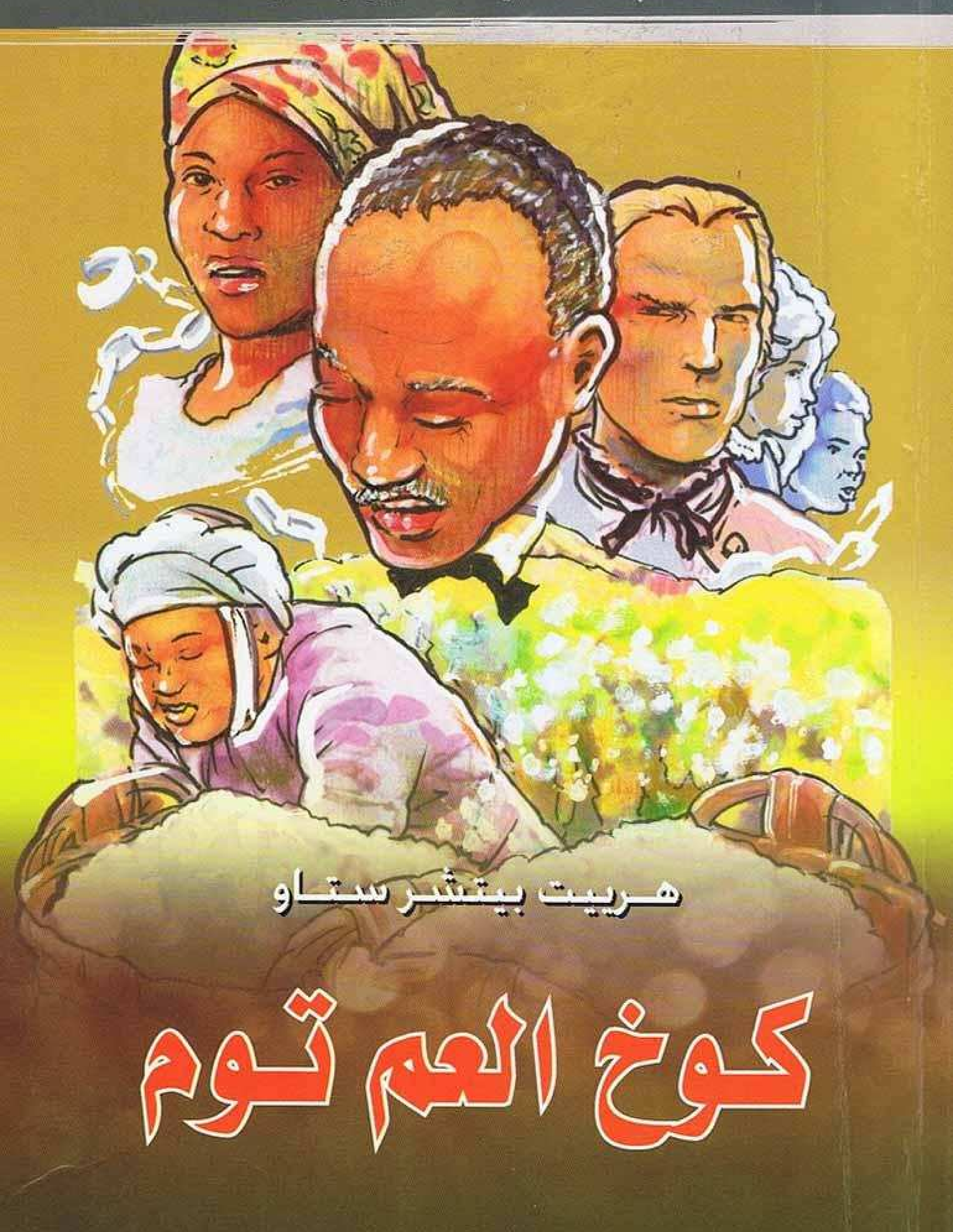
صدر منها:

أحدب نوتردام
نساء صغيرات
كوخ العم توم
أوليڤر تويست
الزنبقة السوداء
الفرسان الثلاثة
طفل من غير أسرة
كتاب الغابة
جزيرة الدلافين
وشاح الشجاعة الأحمر
روبنسون كروزو
آخر أيام بومباي
جزيرة الكنز
البؤساء
دايڤيد كوبرفيلد
حول العالم في ثمانين يومًا
قصة مدينتين
القلعة
مرتفعات ويذرنغ
آيڤنهو
دون كيشوت
بائعة الخبز
كولومبا
تمرّد على السفينة باونتي
سجين زندا
ترّاس بولبا
لورنا دون
سايلاس مارنر
الأمير السعيد وقصص أخرى
جزيرة الأولاد
الحديقة السرية
الزلاجات الفضية
غرفة ومشهد

تحرصُ دار العلم للملايين على أن تَبْقى كُتُبُها رائدةً وَطَليعيّةً مِنْ حَيْثُ المضمُون والإخراج. ويَهمُّها أن تتواصَل مع قرّائها وأن تطّلع على آرائهم في منشوراتها. فإذا كان لديك، عزيزي القارئ، رأيٌ أو ملاحظةٌ مُهِمّة حول هذا الكِتاب نرجو أن تكتبَ إلينا على العُنوان المدوّن أدناه. ويمكنك أيضًا أن تَطْلُب قائمةَ منشوراتنا مجّانًا للاطّلاع على جميع إصداراتنا وأسعارها.

دار العلم للملايين ص.ب. 1058 ـ بيروت ـ لبنان.

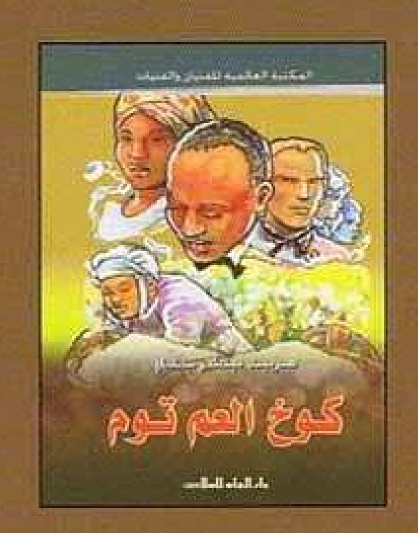
المكتبة العالمية للفتيان والفتيات



هريت بيتشر ستاو

كوخ العم توم

دار العلم للملايين



هذه الرواية

- ❖ أشهر قصّة في الأدب الأميركيّ كله.
- ❖ صوّرت فيها كاتبتُها حياة الزنوج الأميركيّين قبل الحرب الأهليّة، وطالبَتْ بحقّهم في الحياة كبشرٍ ومواطنين.
- ❖ تُرجِمَت إلى مختلف لغات العالم، وطُبعت بالعربية بنصّها الكامل عدّة مرّات.
- ❖ لا يَزال الناس في عصرنا هذا بحاجة إلى قراءة هذه الرواية، لأنَّ مأساة «العم توم» لمّا تنتهِ.. إنّها قائمة إلى اليوم في صُورٍ من التمييز العنصريّ واضطهاد البيض العِرقَ الأسود في بقاع كثيرة من الأرض.

www.malayin.com



